مارتن باج

كيف أصبحتُ غبيّاً

رواية



المركز الثقافي العربي

مارتن باج

كيف أصبحتُ غبيّاً

رواية

ترجمة: حسين عمر



المركز الثقافي العربي

مارتن باج

كيف أصبحتُ غبيّاً

العنوان الأصلي للكتاب:

Martin Page

Comment je suis devenu stupide

الكتاب

كيف أصبحتُ غبيّاً

تأليف

مارتن باج

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2013

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-660-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«كان يحسدهم على كلّ ما لا يعرفونه.»
أوسكار وايلد،
جريمة اللورد آرثر سافيل.

«أوب- لا- دي أوب- لا- دا- الحياة تستمر.»
فرقة البيتلز،
أوب- لا- دي أوب- لا- دا
من الألبوم الأبيض.

لطالما بدا لأنطوان أنّ له عمر الكلاب. في السابعة من عمره، كان يشعر بأنّه منهكٌ كرجلٍ في التاسعة والأربعين؛ وفي الحادية عشرة منه، كانت له خيبات رجلٍ عجوزٍ في السابعة والسبعين. اليوم، وهو في الخامسة والعشرين، يقرّر أنطوان أن يكفّن دماغه بكفن الغباء أملاً في حياةٍ هادئة بعض الشيء. وقد تأكّد أنطوان في أغلب الأحيان بأنّ كلمة الذكاء هي التي تعبّر عن حماقات أُحسِن بناؤها وزُيّن لفظها وأنّها كلمة مؤذية جداً بحيث من الأفضل للمرء أن يكون أحمقاً من أن يكون مثقّفاً محلّفاً. الذكاءُ يجعل المرء تعيساً ومنعزلاً وفقيراً عندما يمنح قناعُ الذكاء خلوداً للورق الصحفي وإعجاباً بالذين يؤمنون بما يقرؤون. بدأت الغلاية بإطلاق صفيرٍ منحرف المزاج. سكب أنطوان الماء المختلج في كوبٍ أزرق مزخرفٍ بقمرٍ محاطٍ بوردتين حمراوين. تفتّحت وريقات الشاي مدوّمةً، ناثرةً لونها وعبقها بينما تصاعد البخار وامتزج بجسد الهواء. جلس أنطوان إلى مكتبه قبالة النافذة الوحيدة لشقته غير المرتّبة.

كان قد أمضى الليل في الكتابة. في دفترٍ مدرسي ضخم،

وبعد الكثير من التردّد والكثير من المسودات، نجح أخيراً في صياغة بيانه. وقد انهمك لأسابيع في إيجاد مخرج وأعذار مقنعة. ولكنّه انتهى إلى القبول بالحقيقة المرعبة: إنّ عقله هو سبب شقائه. إذاً، في تلك الليلة من تموز/ يوليو، كتب أنطوان الحجج التي ينبغي أن تفسّر هجره للفكر. سيبقى الدفتر بمثابة الشاهد على مشروعه، في حال لم يخرج سليماً من هذه التجربة المحفوفة بالخطر، ولكنّه ربما قبل كلّ شيء وسيلة اقتناعه بشرعية محاولته حيث كانت صفحات التبرير هذه بمثابة برهانٍ منطقي.

نقر طائرُ أبو حنّاء بمنقاره على زجاج النافذة. رفع أنطوان عينيه عن دفتره ونقر بطرف قلمه على طاولته وكأنّه يردّ على الطائر. شرب جرعةً من الشاي وتمطّى على كرسيّه وفكّر، وهو يمرّر إحدى يديه بين شعره الذي غزاه بعض الشيب، بأنّه كان عليه أن يسرق بعض الشامبو من بطل لعبة ضربات الزاوية. لم يشعر أنطوان بأنّ له عقلُ لصّ، ولم تكن له الخفّة المطلوبة لذلك، وكان يأخذ فقط ما يحتاج إليه: عبوة شامبو صغيرة مدسوسة خلسةً في علبة سكاكرٍ صغيرة. تصرّف بالطريقة ذاتها مع معجون الأسنان والصابون ورغوة الحلاقة وحبّات العنب والكرز؛ فيأخذ نسبته العشرية، حيث يبحث عن رزقه يومياً في المخازن والمتاجر الكبرى. وبالطريقة ذاتها، ولافتقاره إلى ما يكفي من المال لشراء كلّ الكتب التي يرغب فيها، ولملاحظته ليقظة الحرّاس وحساسية الأروقة الأمنية لـ F.N.A.C، كان

يسرق الكتب صفحةً بصفحة ومن ثمّ يركّبها في شقّته، كناشرٍ سرّي. ولأنّ كلّ صفحة قد كُسِبَت بهذيانٍ، اكتست قيمة رمزية أهمّ بكثير مما لو أنّها قد أُلصِقَت وضاعت بين شقيقاتها: لقد أصبحت، وقد انتُزِعَت من كتابٍ واختُلِسَت ومن ثمّ أعيد ضمّها بصبرٍ وأناة، مقدّسة. وهكذا ضمّت مكتبة أنطوان حوالي عشرين كتاباً أُعيد تركيبها في طبعتها الخاصّة النفيسة.

بينما كان الفجر يبزغ، تهيّأ، وقد أضناه سهر الليل، لأن يضع خاتمة لبيانه. بعد لحظة من التردّد، وقد عضّ على طرف القلم، شرع بالكتابة وانحنى رأسه على الدفتر وارتخى لسانه على حافّة شفتيه:

«لا شيء يغيظني أكثر من هذه القصص التي يتهيّأ البطل فيها في النهاية للرحيل وقد كسب شيئاً ما. إذْ يجازف ويغامر ولكن، في النهاية، يخرج سليماً معافى. لا أريد المشاركة في هذه الكذبة: التظاهر بأنني لم أعرف من قبل خاتمة كلّ هذا الأمر. أنا أعلم جيّداً أنّ هذه الرحلة وسط الغباء ستتحوّل إلى أنشودة في الذكاء. ستكون هذه أوديستي الشخصية الصغيرة، بعد الكثير من المحن والمغامرات الخطيرة، سينتهي بي المطاف بجزيرة إيتاك اليونانية. أشمّ الآن رائحة مشروب أوزو اليوناني وورق العنب المحشي. سيكون من النفاق عدم قول ذلك، عدم القول أنّ، منذ بدء التاريخ، نعلم أنّ البطل سينجو، بل وسيخرج متعاظماً بفعل التجارب الكثيرة. وستُعلن نهايةٌ حُبِكَت على نحوٍ مصطنعٍ لتبدو طبيعية من نوع: «من المستحسن أن يفكّر الإنسان،

ولكن يجب الاستمتاع بالحياة» مهما قلنا ومهما فعلنا، هناك دائماً مغزى يرعى في مروج شخصيتنا. نحن في يوم الأربعاء 19 تموز/ يوليو، وقد قرّرت الشمس أخيراً التخلّي عن تقاعدها. بوديّ أن أقول، مثل شخصية جوكر في *Full Metal Jacket*: «أنا أعيش في عالمٍ دنيءٍ، ولكنني حيٌّ ولا أخاف»».

وضع أنطوان القلم من يده وأغلق الدفتر. شرب جرعة من الشاي ولكن السائل كان قد برد. تمطّى وقام بتسخين بعض الماء على موقدٍ صغيرٍ يعمل بالغاز موضوعٍ على أرضية المكتب. نقر طائر أبو الحنّاء بمنقاره على البلاطة. فتح أنطوان النافذة ووضع حفنة من بذور عبّاد الشمس على حافّتها.

كانت عائلة أنطوان تعود في جزءٍ منها إلى أصول ميانمارية. جاء أجداده لأبيه إلى فرنسا في الثلاثينيات تعقّباً لأثر شان، جدّتهم الشهيرة التي اكتشفت أوروبا قبل ثمانية قرون. كانت شان عالمة نبات مغامرة؛ وتهتمّ بالفنون والأدوية وتحاول أن ترسم خريطة للمنطقة. تعود بعد كلّ رحلة استكشافية إلى باغان، مدينتها الأمّ، وتنضمّ إلى عائلتها وتتشارك اكتشافاتها مع أهلها ومع المثقّفين.

لاحظ أناوراتا، الملك الميانماري العظيم الأوّل، شغفها بالبحث والمغامرة وقدّم لها الوسائل المادية والمالية لاكتشاف العالم الفسيح المجهول. خلال شهورٍ عديدة، سافرت شان وفرقها عبر البرّ والبحر وتاهوا بما فيه الكفاية ليجدوا الطريق إلى العالم الجديد، أوروبا. أبحروا عبر المتوسط إلى جنوب فرنسا ووصلوا إلى باريس. قدّموا مصنوعات زجاجية وألبسة منسوجة من حريرٍ رديءٍ لسكان البلدات الأوروبية وعقدوا صفقات تجارية مع زعماء تلك القبائل البائسة. لدى عودتها إلى بلدها، استُقبِلَت استقبالاً حماسياً على اكتشافها؛ فأصبحت مشهورة وأمضت

أيامها بعزّة وافتخار. وسط اضطرابات القرن العشرين وعنفه، قرّر أجداد أنطوان أن يقتفوا آثار جدّتهم أملاً بسعادة مماثلة. فاستقرّوا في بريتانيا في بداية الثلاثينيات؛ وفي عام 1941، أسّسوا الجناح الشهير للمقاومين في ميانمار .F.T.P واندمجوا تدريجياً في المجتمع وتعلّموا اللغة البريتونية، وبصعوبة أكبر، تعلّموا تناول المحار. كانت والدة أنطوان، التي شغلت منصب مفتّشة سواحل لدى وزارة البيئة، بريتونية؛ وكان والده، الميانماري، يوزّع وقته بين هوايته في الطبخ والصيد في قارب. في الثامنة عشرة من عمره، هجر أنطوان والديه الودودين والقلقين إلى العاصمة، راغباً في أن يشقّ فيها طريقه الخاصّ. في طفولته، كان طموحه أن يصبح الأرنب **باكس باني**، ومن ثمّ، حينما بات أكثر نضجاً، أراد أن يصبح فاسكو دي غاما. ولكن المستشارة التوجيهية طلبت منه أن يختار الدراسة المختصّة بوثائق الوزارة. كانت مسيرته الجامعية على هيئة هواياته واكتشف فيها على الدوام أموراً جديدة. لم يفهم أنطوان قط الفصل التعسّفي بين المواد الدراسية: كان يحضر الدروس التي تهمّه أيّاً كان محتواها، ويُهمل الدروس التي يفتقر أساتذتها للكفاءة. وبشيءٍ من الصدفة حصل على شهاداته بفضل تكديس محاضراته القيّمة ومعدّلاته الرفيعة. كان لديه القليل من الأصدقاء إذ عانى من تلك النزعة الاجتماعية المغالية في التساهل والتسامح. لقد أبعدته ميوله المتنافرة عن الجماعات القائمة على الاشمئزاز والنفور. وإذا كان يرتاب في التشريح المهين للجماهير، فإنّ

فضوله بشكلٍ خاصّ وشغفه اللامحدود والجماعات هو ما جعله مشرّداً في بلده. في عالمٍ يختصر فيه الرأي العام بين **نعم** و**لا وانعدام الرأي**، لم يشأ أنطوان أن يبدي رأيه. إنّ الحصر بين **التأييد والمعارضة** بالنسبة له تحديدٌ لا يُطاق لمسائل معقّدة.

فضلاً عن ذلك، لازمته مسحة استحياء منذ نعومة أظفاره. بدا له أنّ الكائن البشري كبير وغنيّ جداً بحيث لم يعد هناك ما هو أكثر غروراً من أن يكون المرء مغالياً في الثقة بنفسه حيال الآخرين وحيال المجهول والتقلّبات التي يمثّلها كلّ شخص. للحظة، خشي من أن يفقد مسحة خجله وينضمّ إلى جماعة الذين يحتقرونك إن لم تتغلّب عليهم؛ ولكنّه أحسن، بإرادةٍ عنيدة، السيطرة عليها كسمةٍ لشخصيته. وإذا كان قد تعرّض للعديد من الجراح العميقة، إلا أنّ ذلك لم يقس في شيءٍ من طبعه؛ بل حافظ على حساسيته المفرطة التي، كجسدٍ حريريٍّ فينيقي، تولَد من جديد أكثر نقاءً من أيّ وقت كلّما شارفت على التلف والذبول. وأخيراً، إذا كان يثق، منطقياً، بنفسه، إلا أنّه أرغم نفسه على عدم المبالغة في تلك الثقة، وعدم الامتثال بسهولة لما يفكّر به، لأنّه يعلم كم تعشق كلمات عقلنا أن تسدي لنا الخدمات وتنعشنا وهي تخادعنا.

وإذ اتّخذ القرار بأنّ يغيّر حياته بطرق كثيرة، قبل أن يصبح غبياً، جرّب أنطوان دروباً أخرى، حلولاً أخرى ليذلّل صعوبات المشاركة في الحياة.

ها هي محاولته الأولى، التي قد يعتبرها المرء خرقاء،

ولكنّها كانت مليئة بأملٍ صادق. لم يكن أنطوان قد مسّ قطرةً من الكحول قط. حتى حينما يُصاب بجرحٍ طفيف، حينما يُخدَش، كان يرفض، ككارهٍ حقيقي للخمر، أن يُطهِّر جرحه بكحولٍ درجته سبعون، مفضّلاً محلول البيتادين أو الميركوروكروم.

لم يكن في بيته خمر ولا مشهيّات. فيما بعد، احتقر استخدام المخمّرات والمقطّرات لتمويه افتقاره إلى التخيّل أو لإخفاء آثار إحباطه. وإذ لاحظ كم كان فكر الثملين مبهماً ومنفصلاً عن الواقع، وكم كانت جملهم مفكّكة وركيكة وكم كانوا يتوهّمون بأنّهم يطلقون حقائق رائعة، قرّر أنطوان الانضمام إلى هذه الفلسفة الواعدة. بدا له أنّ السُّكْرَ هو الوسيلة لإزالة كلّ وهنٍ تأمّليٍ في فكره. إذا كان ثملاً، لا يعود بحاجة إلى التفكير، لن يعود بوسعه ذلك: سيكون خطيباً متصنعاً لمقاربات غنائية، فصيحاً وذَلِقَ اللسان. في حالة السُّكر، لن يعود للفكر من معنى؛ فهو إذ يرمي قُلسه، قد يُغرِق السفينة أو قد تلتهمه أسماك القرش دون أن يبالي بذلك. في حالة السُّكر يضحك بلا سبب ويُطلِق هتافات عبثية وقد يحبّ الجميع ويصبح سلوكه فاضحاً. قد يرقص ويدور! آه، طبعاً، لم ينسَ الجانب القاتم من الكحول: التلعثم وحالات التقيؤ وتشمّع الكبد المرتقب. والإدمان.

اعتبر أنّه من الجيد أن يصبح سكيراً، فهذا أمرٌ يشغله. يأخذ الكحول كلّ الحيّز في الأفكار ويمنح هدفاً وسط اليأس: الشفاء. سيتردّد على اجتماعات السكيرين المجهولين، ويسرد

سيرته وسيُفهَم ويحظى بمساندة أناسٍ مثله يصفّقون لشجاعته ولرغبته في الانفلات. سيصبح سكيراً، أي شخصاً مصاباً بمرضٍ معروفٍ اجتماعياً. يشفق المجتمع على السكيرين ويعالجهم ويحظون بعناية طبية إنسانية. في حين لا يفكّر أحدٌ بالإشفاق على الأذكياء: «فالذكي يراقب تصرّفات الناس، ولا بدّ لهذا أن يجعل منه إنساناً تعساً»، «ابنة أخي ذكية، ولكنها إنسانة ممتازة. إنّها تريد التخلّص من ذلك»، «في لحظةٍ، خشيتُ أن تصبح ذكياً». كان ليستحقّ هذه الأفكار الخيّرة، المليئة بالشفقة لو كان العالم منصفاً. ولكن كلا، الذكاء عذابٌ مضاعف: فهو يؤلِم ولا أحد يعتبره مرضاً.

أن يكون سكيراً سيكون ترقية اجتماعية مقارنة بذلك. سوف يعاني من أوجاع فعلية، مصحوبة بسببٍ معروف وعلاجات مقدّرة؛ ولكن لا توجد حقنة مضادة للتسمّم الذكائي. بقدر ما يؤدّي الفكر إلى إقصاءٍ ما، من خلال ابتعاد المراقب عن العالم الذي يراقبه، يصبح كونه سكيراً وسيلة لإيجاد مكانٍ له. ولا يمكن لاندماجه كلياً في المجتمع، ما لم يكن ذلك قد تمّ بشكلٍ طبيعي، أن يكون سوى أُمنية سكيرٍ.

بفضل الكحول، سوف يتخلّى عن هذا التحفّظ حيال ألعاب إنسانية وسيغرق فيها بهدوء. وإذ لم تكن لديه أيّ دراية بالموضوع، لم يعرف أنطوان كيف يسلك دربه الجديد. هل عليه أن يبدأ بالإيغال في السكر دون هوادة أم، على العكس من ذلك، أن يتقدّم خطوة بخطوة في المستنقع الكحولي؟

لم يستطع أن يمنع نفسه عن ذلك. دفعه فضوله الجامح إلى أن يهرع إلى المكتبة البلدية في مونتروي، على مقربةٍ من منزله: أراد أن يصبح سكّيراً بذكاء، بطريقة خلاّقة وواعية، وأن يعرف أسرار المشروب الذي سينقذه. اندسّ أنطوان بين أقسام المكتبة ورفوفها واختار الكتب التي بدت له أنّها الأكثر أهمية تحت الأنظار الفضولية لأمين المكتبة، المقتنع باطناً بأنّه ذكي لأنّه يرتدي ثياباً بالية. كان يعرف أنطوان جيداً، وكان قد نال، لأربع سنوات متتالية، لقب «قارئ العام». رغم احتجاجات أنطوان على ذلك التفاخر الثقافي، أظهر أمين المكتبة صورة من بطاقته المكتبية وقد كُتِب عليها بخطٍ عريض «قارئ العام». كان الأمر مضحكاً.

حضر أنطوان أمام طاولة أمين المكتبة ومعه **قاموس كحول العالم أجمع، الدليل التاريخي للكحول، كحول وخمور، أفخر أنواع الكحول، ألفباء الكحول**... نظّم أمين المكتبة إيصال الإعارة وسأله:

- مرّة أخرى! ستحطّم رقمك القياسي للعام الفائت، تهانيّ. هل تُجري أبحاثاً تاريخية حول الكحول؟

- كلا، في الحقيقة، أنا... أحاول أن أصبح سكيراً. ولكن قبل الشروع بالشّرب، أفضّل أن أَلِمَّ بالموضوع.

أمضى أمين المكتبة الأيام التالية في التساؤل إن كانت تلك مزحةً، ثمّ مات، مخنوقاً على نحوٍ غامض تحت أقدام مجموعة من السياح الألمان قرب برج إيفل.

بعد أن أمضى ثلاثة أيام في التهام تلك الكتب وكتابة بعض الملاحظات وإعداد بطاقات قراءة، وبعد أن قدّر بأنّه قد ألمّ بالموضوع، فتّش أنطوان بين معارفه عن سكير قد يعلّمه هذا المنهج. شخصٌ له كفاءة أستاذ في الخمور والكحول البيضاء، أفلاطون في المشروبات الروحية، أينشتاين في الكلفدوس، نيوتن في الفودكا. يودا الويسكي. بين أقاربه وعائلته البعيدة وزملائه وجيرانه، وجد واكتشف ذهانيين وكاثوليكيين، باروناً، هاوياً للكلمات المتقاطعة، ضرّاطاً، متعاطياً للهيروين، منتمين إلى أحزاب سياسية... وعاهات أخرى. ولكن لم يجد بينهم أيّ سكير.

على بعد خمسين متراً، على الرصيف المقابل لشقّته، كانت توجد خمّارة اسمها لو كابيتين إيليفان. قرّر أن يبحث في ذلك المكان عمّن يعلّمه.

أخذ أنطوان كتبه وكذلك دفتراً صغيراً ليدوّن فيه خبراته المستقبلية ومعارفه الجديدة التي يأمل باكتسابها. حرّك بابُ الحانة جرساً صغيراً ولكن أحداً لم يلتفت لدخوله. نظر إلى الزبائن وتفحّصهم ليختار من سيكون معلّمه. كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً، ومع ذلك كان الجميع يشربون بفرحٍ وحمية. لم يكن هناك سوى رجال، وبعض الشباب، معظمهم في الأربعينيات من العمر؛ كان السكّيرون في هذا العمر الملتبس. لم تستطع حيواتهم الجريحة أن تهبهم الميل والقوّة للعواطف المقدّسة وراحوا ينفقون رواتبهم الزهيدة في بدائل

السعادة والجمال ألا وهو الكحول.

كانت الحانة تشبه آلاف الحانات الأخرى: المَشرَب والقوارير المصفوفة كجنود جيشٍ سرّي وبضع طاولات وصندوق موسيقي قديم. وخاصة ذلك المزيج من روائح السجائر والقهوة والكحول وسائل التنظيف الذي تتشبّع به الذكريات.

كان رجلٌ يجلس إلى طاولة تقديم المشروبات، يعتمر قبّعة شبيهة بقبّعة كافروش، ويصفّ أحد عشر كوباً مليئاً بمشروبات مختلفة. رأى فيه أنطوان رجلاً اختصاصياً. بعد أن اطمأنّ قليلاً، وضع كتبه على طاولة المشروب. لم يعره الرجل نظرة وأفرغ الكوب الأوّل. مراجعاً صور موسوعته، عرض أنطوان بالتفصيل مختلف أنواع الكحول وهو يسمّيها مشيراً إليها بإصبعه:

- لاو، جِن، نبيذ أحمر، كَلفدوس، ويسكي، كونياك، بيرة شقراء، غينيس، بلودي ميري، وذاك بالتأكيد شمبانيا. ربّما يكون النبيذ الأحمر من بوردو وقد شربتَ للتوّ شيئاً منه.

نظر الرجل ذو القبّعة إلى أنطوان نظرة مريبة. رأى الهيئة المسالمة لهذا الشابّ ذي الشعر الأشعث، فابتسم، موافقاً:

- لا بأس! أنت موهوب، أيّها العفريت.

ثمّ تجرّع كوب الويسكي دفعة واحدة.

- شكراً يا سيّد.

- هل أنت عالم فراسة في الكحوليات؟ هذا فنٌّ أصيل، رغم أنّني لا أمتلك أدنى فكرة عن فوائده. عموماً، هناك بطاقة تعريفية على القارورة.

هزّ أنطوان رأسه وأدار وجهه باحتشام تحاشياً لأنفاس الرجل الكريهة، وقال:

- كلا. أنا أقرأ كتباً حول الكحول لأتعرّف على مختلف التركيبات والمواد المستخدَمة فيها... أريد أن أعرف كلّ شيء عن الكحول.

قال الرجل بعد أن أفرغ كوب الجِن:

- وفيمَ سيفيدك هذا الأمر؟

- أريد أن أصبح سكيراً.

أغمض الرجل عينيه وشدّ على الكوب بين يديه؛ فابيضّت مفاصله وصرّ الكوب. سُمِع ضجيج الشارع وصخب السيارات والأحاديث الحميمة للتجّار. شهق الرجل عميقاً وزفر بطيئاً. فتح عينيه ومدّ يده إلى أنطوان. ابتسم من جديد:

- اسمي ليونارد.

- سعدتُ بلقائك. اسمي أنطوان.

تصافحا. تفرّس ليونارد في أنطوان حائراً ولاهياً. طالت المصافحة. وأخيراً أفلت أنطوان يده.

غمغم ليونارد:

- تريد أن تصبح سكيراً... لو كان الأمر قبل عشرين عاماً، لظننتُ أنّك تهذي، ولكن منذ زمنٍ طويل، لم يعد الكحول يقدّم لي سوى الواقع سراباً. تريد أن تصبح سكيراً ولهذا لديكِ كلّ هذه الكتب. هذا أمرٌ منطقي.

- جمعتُ هذه الكتب لأنني لا أريد أن أكون سكيراً عاديّاً.

يهمّني فعلاً أن أعرف مختلف أنواع الكحول والمشروبات الروحية والخمور، إذ هناك ثراءٌ كبير في هذا المجال! لقد اكتشفتُ أنّ الكحول مرتبطٌ بالتاريخ الإنساني وله من الأتباع أكثر ممّا للمسيحية والبوذية والإسلام مجتمعةً. أنا أقرأ الآن دراسة شيّقة لريموند دوماي حول هذا الموضوع...

قال ليونارد ببرودة:

- بالإفراط في القراءة، لن تصبح قط سكيراً. هذا نشاطٌ يتطلّب نوعاً من الالتزام، وينبغي تكريس عدّة ساعات له يومياً. هذا نظامٌ وانضباط أولمبي، كما يُقال. لا أعتقد أنّك تمتلك القدرة على ذلك، يا فتى.

- اسمع، لا أريد أن أبدو سفيهاً، ولكن... أنا أتحدّث الآرامية، وقد تعلّمت أن أُصلِح محرّك الطائرات المطاردة في الحرب العالمية الأولى، وأن أجني العسل، وأن أغيّر حفاضات كلب جارتي، وحينما بلغتُ الخامسة عشرة، أمضيتُ شهراً من العطلة عند عمّي جوزيف وزوجته ميراندا. وبالتالي أفكّر أن أصبح، بمساعدتك، سكيراً. لدي الإرادة.

أبدى ليونارد دهشته بلطف:

- بمساعدتي؟

ثمّ نظر إلى كوب الشمبانيا - وقد طفَت بعض الفقاعات الصغيرة على السطح.

- نعم. أنا أعرف الجانب النظري ولكن ليست لديّ أي ممارسة عملية. أمّا أنت فتبدو محترفاً.

أشار أنطوان إلى صفّ الأكواب على الطاولة. رشف ليونارد الكونياك وأبقاه في فمه للحظات. بدأت خدّاه بالتورّد. مسح صاحب المقهى الطاولة بممسحة وأخلى الأكواب الفارغة. قطّب ليونارد حاجبيه.

- ومن قال لك بأنّك تمتلك الكفاءة لهذا الأمر؟ أتعتقد أن المرء يصبح سكيراً بهذه السهولة؟ وأنّه يكفي أن يرغب في ذلك ويشرب بضعة أكوابٍ من الكحول؟ أعرف أناساً قضوا حياتهم في الشرب، ولكنهم لم ينجحوا قط في أن يصبحوا سكيرين. لم تكن لديهم القابلية والاستعداد لذلك. إذاً، أنت... أتعتقد أنّ لديك الموهبة؟ تأتي بهدوء وتقول بأنّك تريد أن تصبح سكيراً، وكأن الأمر بيدك! دعني أقول لك شيئاً، أيّها الشاب: الكحول هو مَنْ يختار، الكحول هو مَنْ يقرّر إن كنتَ قابلاً لأن تصبح سكيراً.

هزّ أنطوان كتفيه معتذراً: لم يدّعِ قط الاعتقاد بأنّ الأمر سهلٌ، وإلاّ لماذا جاء يبحث عن مدرّبٍ في هذه الخمّارة؟ تصرّف ليونارد بعجرفة ذئاب البحر المخضرمين حينما يأتيهم شابٌّ غرّ وساذج ويقول لهم بأنّه يريد ركوب البحر. وبالرجوع إلى طفولته في الموانئ البريتونية الصغيرة، عرف أنطوان ذاك الشعور وفهمه: يفتخر الفنانون بفنّهم ويغارون عليه.

- لا أريد أن أعطي هذا الانطباع، يا سيد ليونارد. أنا أعترف بجهلي ولا أدري إن كنتُ موهوباً في هذا الأمر. أطلب منك أن تعلّمني.

أجاب ليونارد مداهناً:

- أريد أن أحاول، يا بني، ولكن لا أضمن لك شيئاً. إن لم يكن لديك ما يلزم... لا يستطيع الجميع أن يصبحوا سكيرين، هذا مؤكّد، هناك نوعٌ من الاصطفاء؛ هذا محزن، ولكن هذه هي الحياة. وبالتالي، لا تحقد عليّ إن بقيتَ على رصيف الميناء. هناك سفنٌ أخرى ينبغي ركوبها.

- فهمت.

احتار أنطوان بين البلودي ميري وكوب الغينيس. فاختار البيرة. تعلّقت الرغوة بالشعيرات الرمادية من لحيته، والتي مسحها بكمّ سترته السميكة السماوية.

- حسناً. عليّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة. نوعٌ من الامتحان الأوّلي.

- مسابقة دخول؟

- طبعاً، يا فتى، أنت تعلم أنّ هناك شروطٌ لتعاطي الكحول، هذه مسألة جدية...

قال أنطوان وهو يبتسم ويهزّ كتفيه:

- ومع ذلك هذا لا يتطلّب رخصة.

- ولكن يجب أن تُطلب هذه الرخصة. لا يحتمل البعض الكحول، فيوسِعون زوجاتهم وأبناءهم ضرباً ويقودون سيارتهم كيفما كان ويصوّتون في الانتخابات... يجب أن تتكفّل الدولة بتوعية السكيرين بحدودهم وبالتغيّرات في فهمهم للزمان والمكان

وبشخصيتهم. . . كالسباحة تماماً، من الأفضل أن نجيد السباحة قبل أن نقفز إلى الحوض الكبير.

قال أنطوان:

- في الحالة الراهنة، سوف تتأكّد أوّلاً إن كنتُ سأجيد السباحة.

- تماماً، يا فتى. أريد أن أعرف إن كانت لديك زعانف لتتمكّن من السباحة.

هيّا لنرَ. . . السؤال الأوّل: لماذا تريد أن تصبح سكيراً؟ يبدو لي أمراً أساسياً أن أعرف دافعك.

فكّر أنطوان وهو يقطّب جبينه. نظر إلى الزبائن الآخرين ووجد أنّهم منسجمون تماماً مع الديكور. كانوا على نوعٍ من الألفة، لأنّهم وإن لم يكونوا متشابهين فقد كانوا جميعاً من المادة الحزينة نفسها.

- «الإدمان على الكحول سببه القبح والعقم المحيّر لوجودنا».

سأل ليونارد بعد أن شرب البلودي ميري بجرعةٍ واحدة:

- أهذه مقولة؟

- نعم، مقولة لمالكولم لاوري.

- سؤالٌ آخر، يا فتى: حينما تذهب لشراء الخبز، هل تذكر شكسبير أمام المخبز؟ «شراء خبز محلّى بالزبدة أو خبز بالشوكولا، تلك هي المسألة». أفضّل أن تتحدّث بنفسك، لا أن

تستحضر كاتباً عظيماً. برأيي، أمر المقولات سهلٌ للغاية لأنّه هناك الكثير من الكتّاب العظام الذين قالوا الكثير من الأشياء التي لم نعد بحاجة إلى إبداء رأيٍ شخصيٍّ فيها.

- إذاً، لنقل أنني مسكينٌ، بلا مستقبل... لا سيما وأنني أفكّر كثيراً، لا يسعني الامتناع عن التحليل ومحاولة فهم كيفية سير كلّ هذا البازار واستمراره، إنّه لأمرٌ يحزنني جداً أن أرى أنّنا لسنا أحراراً وأنّ كلّ فكرٍ وكلّ فعلٍ حرّ يتمّ لقاء جرحٍ لا يندمل.

- أيّها الفتى، أنت شاعر: تريد القول أنّك محبط نفسياً...

- هذه حالتي الطبيعية، أعاني من الإحباط منذ خمسة وعشرين عاماً.

ربّت ليونارد على كتف أنطوان بمودّة. دخل زبونٌ وجلس إلى طاولة تجري عليها لعبة ورق. طلب فنجاناً من القهوة وكوباً من الكلفدوس. أدار صاحب المقهى الراديو ليسمع أخبار الساعة التاسعة.

- ولكنّك تعلم، الكحول لن يشفيك. لا يجب أن تصدّق هذا الأمر. سيهدّئ الكحول جراحكَ ولكنّه سيصيبك بجراحٍ أخرى، قد تكون أسوأ. لن يعود بوسعك الاستغناء عن الكحول، حتى وإن شعرت في البداية بنشوة وسعادة الشرب، فإنّ هذا سيختفي سريعاً ولن يبقَ سوى طغيان الإدمان والحرمان. لن تكون حياتك سوى سُحب من الضباب وحالات من نصف

وعي وهلوسات وذهان هذياني ونوبات من الهذيان الرعاشي وعنف ضدّ المحيطين بك. سوف تتفكّك شخصيتك. . .

طرق أنطوان الطاولة بقبضته الصغيرة وقال:

- هذا ما أريده! لم أعد أقوى على أن أكون أنا، لم تعد لدي الشجاعة ولا الرغبة في امتلاك شخصية. الشخصية بذخٌ يكلّفني غالياً جداً. أريد أن أكون شبحاً تافهاً. سئمتُ حريّتي في التفكير ومعارفي ووعيي الشيطاني!

بعد أن أفرغ كوب البورتو، برطم ليونارد. أبقى، وهو حالم، الكوب مرفوعاً، وتمرّى فيه وقد أخفته القوارير جزئياً. كلّما يُفرغ الأكواب، يتراخى على الطاولة وتضيق عينيه وتصبح حركاته أقلّ ترنّحاً وأكثر رحابةً وغموضاً. وكسؤالٍ أخير في «الامتحان»، سأل ليونارد أنطوان أن يخمّن لماذا يصفّ على الطاولة أحد عشر كوباً من مختلف المشروبات.

أجاب أنطوان فوراً:

- لعدم إثارة الغيرة؟

غمغم ليونارد مبتسماً وهو ينقر بلطف بكوبٍ على الطاولة:

- عدم إثارة الغيرة. . . هلا كنتَ أكثر دقّة؟

- ربّما أنّك تكرّم بهذه الطريقة، على قدم المساواة، كلّ أنواع الكحول. لستَ من محابي البيرة أو الويسكي الاسكتلندي، لا شيء من الطائفية لديك: أنت تحبّ الكحول بكلّ انحرافاته. أنت عاشقٌ للكحول وممجّدٌ له.

- لم أنظر قط إلى الأمر بهذه الطريقة، ولكن. . . نعم، أنا موافق. أنطوان، يا أنطوان. . . يبدو لي أنّك تمتلك الأهلية والكفاءة، ربّما تكون الطبيعة برحمتها الواسعة قد منحتك الموهبة. ولكن يجب عليّ أن أُطلِعك على كلّ المنغصات التي ستعاني منها. سوف تتقيّأ غالباً، وستكون معدتك متشنجة ومحمّضة وستعاني من كلّ أنواع الصداع العيني والدماغي ومن آلامٍ رقبية وعضلية وعظمية وحالات إسهالٍ متكرّرة وتقرّحات وتشوّش في الرؤية وحالات أرق وارتفاع حرارة الجسم، ونوبات من القلق. في سبيل القليل من الدفء والراحة، يمنحك الكحول كلّ هذا، يجب أن تكون مدركاً للأمر.

دخل زبونان جديدان. صافحا صاحب المقهى وألقيا التحية على ليونارد. جلسا إلى طاولةٍ في عمق المقهى وأشعلا غليونيهما وشربا البيرة وهما يتقاسمان صفحات صحيفة لوموند.

نظر أنطوان إلى ليونارد بعينيه الصافيتين؛ وكالعادة، كان هادئاً جداً وواثقاً من قراره. مرّر يده من بين شعره.

- هذا ما أريده، أريد آلاماً أخرى، آلاماً حقيقية، أعراضاً جسمية لتصرّفٍ واضح. سيكون سبب ألمي الكحول؛ لا الحقيقة وإنّما الكحول. أفضّل مرضاً يبقى في حدود قارورة بدل مرضٍ لا ماديّ وكلّي القدرة لا يمكنني إطلاق اسمٍ عليه. سوف أعرف سبب آلامي. سيحتلّ الكحول كلّ أفكاري، وسيملأ كلّ ثانية من وقتي مثل أكوابٍ صغيرة. . .

قال ليونارد بعد أن داعب لحيته:

- أنا موافق. أريد أن أكون أستاذك في تعاطي الكحول. سأكون صارماً وسأجهدك. هذا تعليمٌ طويل الأجل، يكاد يكون تزهّداً.

قال أنطوان هادئاً وهو يصافح اليد الجافّة والخشنة للسكّير.

- شكراً، شكراً من كلّ قلبي.

رفع ليونارد يده وفرقع بأصابعه ليستدعي صاحب المقهى الذي كان يقرأ صحيفة لوباريزيان على الطرف الآخر من طاولة الشرب، قرب صندوق الآلة المسجّلة:

- روجيه، قدحٌ من البيرة للصبي! (وضع صاحب المقهى البيرة أمام أنطوان) شكراً. سوف نبدأ رويداً. هذه بيرة درجة الكحول فيها خمسة، سيكون هذا سهلاً عليك، يجب أن نمرّن حنكك ونعوّد كبدك الغضّ. لا يصبح المرء سكيراً بأن يثمل كلّ مساء سبتٍ، لا بدّ من المواظبة والمثابرة. المواظبة على الشرب بجدية ومثابرة. يصبح معظم الناس سكيرين بدون منهج، إذ يشربون الويسكي والفودكا بكميات ضخمة ويمرضون ويستأنفون الشرب. إذا أردت رأيي، يا أنطوان، هؤلاء أغبياء. أغبياء وهواة! يمكن للمرء أن يصبح سكيراً بطريقة أكثر ذكاءً، باستخدامٍ علميٍّ للجرعات والدرجات الكحولية.

نظر أنطوان إلى الكوب الكبير للبيرة المتوّج بالرغوة البيضاء؛ بدا كلّ شيء ذهبيّاً عبر تلك البلّورة الموشورية. نزع ليونارد قبّعته ووضعها على رأس أنطوان، قائلاً:

- هيّا، يا رُجل، يجب ألا تخاف، لن تغرق فيها.

سأل أنطوان بشيءٍ من الاستحياء:

- هل ينبغي أن أشرب دفعة واحدة أم بجرعات صغيرة؟

- هذا الأمر يعود إليك. إن أحببت مذاقها وأردت ألا تسكر سريعاً، اشرب بجرعاتٍ صغيرة وتلذّذ برحيقها. أمّا إذا وجدتها منفرةً وكريهة فتجرّعها دفعة واحدة.

بعد أن شمّ الشراب وغمس أنفه في الرغوة، بدأ أنطوان بالشرب. كشّر ولكنّه استمرّ في إفراغ الكوب.

بعد خمس دقائق، توقّفت سيارة إسعاف منزلقة على الرصيف أمام مقهى لوكابيتين إيليفان. دخل ممرّضان مزوّدان بنقّالة إلى الحانة وحملا أنطوان في حالة غيبوبة من جرّاء تسمّم كحولي. على الطاولة، كان كوبه من البيرة لا يزال نصف ممتلئ.

بسبب حساسية فيزيولوجية مفرطة، لم يفلح أنطوان في أن يصبح سكيراً. وكدواءٍ بديل، اتّخذ قراره بالانتحار. أن يصبح سكيراً كان طموحه الأخير في الاندماج الاجتماعي، وأن يموت هي وسيلته الأخيرة للمشاركة في العالم. كانت شخصيات أُعجِبَ بها قد امتلكت شجاعة اختيار لحظة موتهم: همنغواي، حبيبته فيرجينيا وولف، عزيزهُ سينيك، ديبور، كاتون الأوتيكي، سيلفيا بلات، ديموستين، كليوباترا، لافارغ....

لم تعد الحياة سوى عذاب أبدي. لم يعد يستمتع برؤية شروق الشمس، أصبحت كلّ لحظاته مرّة وتفسد طَعمَ كلّ ما بقي ممتعاً. ولأنّه لا يشعر بالحياة قطّ، لا يخشى الموت، بل كان سعيداً بأن وجد في الموت الدليل المحسوس الوحيد على بقائه حيّاً. أدّت النوعية الرديئة للطعام الذي قُدّم له في المستشفى إلى الاقتناع بوضع نهاية لأيامه. وكان أنطوان قد قُبِلَ في طوارئ مستشفى بيتيه - سالبيتريير، رغم البطاقة اللدنة التي كانت في محفظته والتي تشير إلى أنّه يتبرّع بأعضائه في حال مات دماغياً وأنّه يفضّل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة على رصيفٍ بدل أن يُعالَج

في مستشفى بيتيه. وإذا كان لا يريد أن يجد نفسه في هذا المستشفى فذلك خوفاً من مقابلة عمّه جوزيف وزوجته ميراندا.
كان أنطوان خلوقاً ولكنّه لا يطيقهما، ولا أحد غيره يُطيقهما. ليس هذا لأنّهما خطيران، وإنّما فقط لأنّهما لا يكفّان عن التشكّي والصراخ وافتعال المشاكل لأتفه سبب. وقد انضمّ بوذيون ظرفاء إلى ميليشيا شبه عسكرية لجعلهما حسني المعشر. في كلّ رحلةٍ لهما إلى الخارج، كانا يخلقان إشكالات دبلوماسية. ولذلك مُنِعا من السفر إلى العديد من البلدان: إسرائيل، سويسرا، هولندا، اليابان، الولايات المتحدة. وقد نشر الجيش الجمهوري الإيرلندي ومنظمة إيتا وحزب الله بيانات تؤكّد بأنّها ستعدم الزوجين إن وطَأت أقدامهما أراضيهم. ولم تفعل البلدان المعنية ولم تقل شيئاً يدفع للاعتقاد بأنّها تعارض ذلك. ربّما سيتجرأ الجيش، ذات يوم، على استخدام القدرة الهدّامة لهذين الزوجين ويستعملها حينما يكتشف عجز القنابل الذرّية. يقضي العم جوزيف وزوجته ميراندا حياتهما في المستشفى منذ عدّة سنوات؛ ويغيّران الأقسام والطوابق تحت رحمة العمليات الجراحية والأمراض الحقيقية والمختلقة بوساوسهما الشرسة. يجولان في كلّ الأقسام وينتقلان من قسم الأمراض البولية إلى قسم الحساسية ويجرّبان قسم الأوعية الدموية والمعدة والأمعاء والأذن والأنف والحنجرة وأمراض الفم والجلد والسكّري...

كانا يتنقّلان بين مستشفيات العاصمة كما يتجوّلان في بلدانٍ

غريبة، متجنّبين دائماً القسمين اللذين قد ينفعانهما وينفعان غيرهما من الناس في شيء: قسم الأمراض العقلية والطبّ الشرعي.

عبثاً حاول أنطوان إقناع الممرضين بحذف اسمه من سجلّ المستشفى لتفادي زيارةٍ من عمّه وزوجة عمّه.

وإذ خرج تدريجياً من غيبوبته، قرّر أن ينتحر، جالساً في سريره في المستشفى، حيث وضِعَت ملعقة في حُقّ صغيرٍ من خلاصة التفاح محبحبة ووردية اللون.

جاء أصدقاؤه - غانجا وشارلوت وآسلي ورودولف - لزيارته. اعتاد غانجا، وهو زميل دراسة سابق في كلية علم الأحياء، والرجل الأكثر هدوءاً وطيبة في العالم، أن يُنعِش أنطوان بإعداد منقوع الأعشاب الطبية الذي أبهج سهراتهم. كانا يلعبان الشطرنج لمرّات عديدة في الأسبوع فوق مرصد السوربون ويتسكّعان في الشوارع مثرثرين. لم يكن لدى أنطوان أيّ فكرة عن مهنة غانجا والذي ظلّ غامضاً جداً في هذا الشأن، ولكنّه كان يملك مالاً لا بأس به ويتكفّل غالباً بدفع الحساب.

كانت شارلوت، المترجمة في دارٍ للنشر، جارة قديمة لأنطوان. كان حلمها الأكبر أن تُرزَق بطفل ولكن لكونها سحاقية، لم تشأ الحصول عليه بالطرق الطبيعية. وبفضل تواطؤ صديقتها الطبيبة، كانت تتلقّح صناعياً بانتظام. ولزيادة حظوظها، كان أنطوان، بعد كل عملية تلقيح صناعي، يرافقها إلى معرض ترون أو أيّ حفلة سوقيّة ويدوران، في فترات ما

بعد الظهيرة، داخل العجلة الكبيرة. لم تكن تلك التقنية علمية تماماً ولكن شارلوت اعتقدت بأنّ القوّة النابذة لتلك الآلات تستطيع أن تضع الحيوانات المنوية العاصية في المكان المناسب. كان رودولف، وهو زميل في الكلية، النقيض الذي لا غنى عنه. فهو يكبر أنطوان بعامين ويعدّ أطروحة عنوانها «كانط أو سيطرة الفكر المطلق». ربّما كان رودولف، النتاج النقي للنظام التربوي، يأمل في الحصول على منصب محاضر بعد عامين، وفي أن يصبح أستاذاً جامعياً بعد سبع سنوات ويموت منسياً تماماً بعد ذلك بحوالي ستين سنة تاركاً وراءه نتاجاً سيؤثّر في أجيالٍ من ديدان الخشب. ما يجمعهما، أي ما يقرّب أنطوان ورودولف من بعضهما، هو أنّهما لم يكونا متفقين على شيء قط. كان شجارهما الأخير حول الفكر، حينما أكّد رودولف، كفيلسوفٍ بارع، على إنتاج الأعمال الفكرية الخالصة بإرادته الكلية القدرة وحريته الكاملة في الاختيار. سخر أنطوان منه مذكّراً إياه بالاحتمالات والحتميات المتعددة التي تُثقل كاهل البشر. ولكن رودولف اعتقد بأنّ الأستاذ في الفلسفة يختلف عن عامّة الناس. باختصار، كان أنطوان الشكّ ورودولف اليقين، ويمكننا القول بأنّ كلاًّ منهما يمجّد اتجاهه الفكري بطريقته الخاصّة. أخيراً، كان آسلي أوفى أصدقاء أنطوان ولكننا سنتحدث عنه لاحقاً.

خلال زيارتهم الأولى، أخذ غانجا بعض النقوع وشارلوت زهوراً وآسلي شجرة نخيلٍ قصيرة تبلغ متراً ونصف في أصيصٍ

وتحسّر رودولف على أنّ أنطوان لم يكن موصولاً إلى جهازٍ للتنفّس الاصطناعي ربّما كان بمقدوره أن يفصله.

لم يغيّر اهتمام أصدقاء أنطوان قراره الصامت: كان قد قرّر، لمرّة واحدة في حياته، بأن يكون أنانيّاً وألا يعود يعيش لكي لا يُحزِنَ أصدقاءه.

كان في الغرفة المجاورة لأنطوان كائنٌ بشري، هذا مؤكّد، ولكن ما كان بوسعه أن يكون أكثر دقّة. لم يدرِ إن كان امرأة أو رجلاً ولم تكن لديه أيّ فكرة عن عمر ذاك الشخص لسببٍ بسيط وهو أنّه كان ملفوفاً بالضمادات على طريقة المومياءات المصرية. ولكن ذلك الشكل الأبيض لم يكن يضمّ جثمان فرعونٍ لأنّه كان يتلفّظ بصوتٍ أنثوي مغايرٍ لنبرة وادي الملوك:

- لا تقلق، سأنجو. مرّة أخرى، سأنجو.

سأل أنطوان وقد جلس في سريره:

- عفواً؟

- لماذا أنت هنا؟

- بسبب غيبوبة ناجمة عن تسمّم كحولي.

أكّدت المرأة بنبرة خفيفة:

- أوه، لقد سبق أن جرّبت ذلك. هذا أمرٌ لا بأس به. ماذا شربتَ؟ فودكا؟ ويسكي؟

- بيرة.

- كم لتراً؟

- نصف كوب.

- نصف كوب؟ لقد حقّقت رقماً قياسياً في هذا الصنف. إن الغيبوبة الكحولية مسألة كلاسيكية.

- لم يكن هذا هدفي وإنّما أردتُ أن أصبح سكيراً ولكنّني لم أنجح. الآن، يبدو لي الانتحار الحلّ الأنسب. فهنا، لديّ على الأقلّ كل حظوظي.

- ثب إلى رشدك: فلا شيء أصعب من أن يقتل المرء نفسه. إنّ الحصول على شهادة البكالوريا أو النجاح في مسابقة مفّتش الشرطة أو الحصول على شهادة الأستاذية في الآداب لأسهلُ من الانتحار. إنّ نسبة النجاح أقلّ من ثمانية بالمائة.

جلس أنطوان على حافة سريره. كانت الشمس الشاحبة تضرب ألواح الستارة وتطبع ضوءها على جدران الغرفة المصبوغة بلون المرض. كان أصدقاء أنطوان قد مرّوا قبل بضع ساعات، ولكن لم يأتِ أحدٌ قط ليسأل عن أخبار المرأة.

سأل أنطوان:

- هل حاولتِ الانتحار؟

أجابت بنبرة ساخرة:

- كما يمكنك رؤية ذلك. وقد أخفقت.

- أهذه ليست محاولتكِ الأولى؟

- لم أعد أحصيها، هذا يُحبطني نفسياً. ومع ذلك، جرّبت كلّ شيء. ولكن في كلّ مرّة، يعترضُ شيءٌ أو شخصٌ موتي.

حينما حاولتُ أن أُغرِق نفسي، أنقذني غبيٌّ شجاع. وقد مات بعد أيام بالتهاب الرئة. هذا أمرٌ رهيب، أليس كذلك؟ حينما علّقتُ نفسي، فلت الحبل. حينما أطلقتُ رصاصةً على صدغي، اخترقت الرصاصة جمجمتي دون أن تصيب دماغي ودون أن تسبّب أيّ أذى جدّي. ابتلعتُ علبتي منوّم، ولكن المصنع كان قد غشّ في المقادير وحظيتُ فقط بثلاثة أيامٍ من القيلولة. قبل ثلاثة أشهر، استأجرتُ قاتلاً مأجوراً ليقتلني ولكن الغبي أخطأني وقتل جارتي! حقّاً، لستُ محظوظة. أردتُ، قبلاً، أن أنتحر يأساً، الآن، السبب الرئيس ليأسي هو أنني لا أنجح في الانتحار.

كزمردتين على كتّانٍ أبيض، وحدهما عيناها الخضراوان كانتا ظاهرتين عبر اللفائف البيضاء. بحث أنطوان فيهما عن أثرٍ للحزن، ولكنّه لم يجد فيهما سوى التبرّم.

سألت وقد أدارت بصرها نحو أنطوان:

- أتريد أن تعرف لماذا أنا في هذه الحالة؟ لا تتضايق، من الطبيعي أن يتساءل المرء لماذا أنا ملفوفة هكذا. لقد رميتُ بنفسي من الطابق الثالث في برج إيفل. كان يجب أن يكون موتي محتوماً، أليس كذلك؟ حسناً، في تلك اللحظة بالضبط، اجتمعت مجموعة من السياح الألمان الذين يرتدون سراويل قصيرة أسفل البرج لالتقاط صورة تذكارية.

- سقطتِ فوق الألمان؟

- سحقتهم، نعم. لقد خفّفوا سقوطي، بل قفزت. عدّة

مرّات. النتيجة: لقد تهشّمت كلّ عظام جسمي تقريباً ولكن، حسب ذاك الطبيب الأحمق، سأقف على قدمي وسأكون بكامل صحّتي بعد ستة أشهر.

بسط الصمت أجنحته الواسعة والضعيفة كفراشة في الغرفة. كانت الشمس قد توارت لتترك مكانها للمطر والغيوم المكفهرّة. كان شهر حزيران/ يونيو يحاكي آذار/ مارس.

- ربّما من الأفضل أن تكفّي عن محاولة الانتحار. سينتهي الأمر إلى مآلٍ سيئ. حاولي... لا أدري... أن تلتقي بالناس، أن تستمعي إلى ألبومٍ لفرقة **كلاش**، أن تقعي في الغرام...

- أنت لا تفهمني! أنا سأقتل نفسي بسبب الحبّ، وبالتالي إذا أحببتُ وفشلت سأرغب في الموت مرّتين. ثم أنّ الانتحار موهبتي؛ مذ كنتُ صغيرة، كان الانتحار هوايتي. كيف سأبدو لو أنني سأموت في التسعين من عمري موتاً طبيعياً؟

- لا أدري، يا سيّدتي، لا أدري.

- ولكن هذا لن يحصل، لن أتحمّل تلك المهانة. أتناول أيّ طعام، أشياء كثيرة مقلية، أطنان من اللحم، أفرط في الشراب، أدخّن علبتي سجائر يومياً... هل تعتقد أنّ هذا مقبول كوسيلة للانتحار؟

شجّعها أنطوان:

- نعم. المهمّ هو الهدف الذي تفعلين كلّ هذا في سبيله. ولكن في الوقت نفسه، لا أعتقد لو أنّكِ متِّ بسرطان الرئة سيُعدّ

ذلك انتحاراً في السجلات الرسمية، حتى وإن كان هو الهدف المنشود.

- لا تقلق، لن أخفق مرّة أخرى.

روت المرأة لأنطوان بأنّها قد اكتشفت، على لوحة إعلانات جمعيات بلدية الدائرة الثامنة عشرة بين مراكز تعليم اليوغا وتعليم صناعة الفخار، مركزاً لتعليم الانتحار. أصغى أنطوان، الذي لم تكن لديه أيّ خبرة في هذا المجال والذي لم يشأ أن يضيّع سنواتٍ نفيسة من الموت في محاولات الانتحار دون أن يحالفه النجاح في ذلك، أصغى إلى جارته في الغرفة بانتباه. شرحت له مشروعها: ما أن تتعافى، سوف تذهب إلى ذلك المركز وتتعلّم بمثابرة كيف تنتحر بطريقة سليمة. أملت على أنطوان رقم هاتف المركز.

فجأةً، انفتح الباب وظهر عفريتا جزيرة تسمانيا وسط عاصفة من الهتافات والحركات السريعة: ارتمى العمّ جوزيف وزوجته ميراندا على أنطوان المسكين. سألاه عن أخباره وعن عائلته ولكن سرعان ما عادا إلى اهتماماتهما، أي مصائبهما المفتَرَضة. روى العم جوزيف لأنطوان وكذلك لجارته في الغرفة - والتي لا بدّ أنها قد أسِفَت، أكثر من أيّ وقت مضى، لوجود السيّاح الألمان -، بأنّه قد خرج من عملية جراحية في الطِحال وأنّه متأكّدٌ من أنّ الطبيب الجرّاح قد بدّل طحاله بطحال مريضٍ آخر. ألحّ على أن يلمس أنطوان بطنه. غمغم وهو يكزّ على أسنانه:

- هل تشعر بالطحال يا أنطوان؟ هنا، هل تشعر به؟ هذا ليس طحالي، ما كان يجب أن يحدث هذا، هذا ليس طحالي!

- ولكن لماذا سيكونون قد بدّلوا طحالك، يا عمّي جوزيف؟

صاح العمّ جوزيف:

- لماذا؟ لماذا؟ أخبريه يا ميراندا، أنا لا أستطيع أن أخبره. أخبريه يا ميراندا!

أردفت زوجة العمّ ميراندا:

- لماذا؟ الاتجار بالأعضاء البشرية!

صرخ العمّ جوزيف:

- لا ترفعي صوتكِ! لا ترفعي صوتكِ، سوف يسمعوننا، والله يعلم ماذا سيفعلون بنا. إنّهم قادرون على فعل كلّ شيء، كلّ شيء. إنّ الذين يبدّلون الطحال قادرون على فعل كلّ شيء!

همست زوجة العمّ ميراندا وهي تُمسك بذراع أنطوان:

- نعتقد أنّ هذه مؤامرة، لقد جمعنا حزمةً من الدلائل والقرائن حول اتجارٍ خطيرٍ بالأعضاء البشرية داخل هذا المستشفى.

سأل أنطوان:

- ما الذي يجعلكما تعتقدان هذا؟

صاح العمّ جوزيف:

- الطحال! طحالي! أليس هذا دليلاً؟ لقد أخذوا طحالي

الجميل ليبيعوه بثمنٍ ذهبيّ، وزرعوا لي طحالاً قديماً ضامراً ورخواً. . .

أكّدت زوجة العمّ ميراندا:

- لقد لاحظنا علامات على ذلك، غمزات من الممرضين والأطباء الذين قالوا الكثير عن المؤامرة.

وهكذا جال العمّ جوزيف وزوجته ميراندا على كلّ غرفة ليجسّا بطون المرضى. ثمّ راحا، كمخبرين أبلهين، يبحثان عن شهاداتٍ ودلائل على هذه التجارة غير المشروعة.

استدار أنطوان، وقد سُرّ باستعادة الهدوء في غرفته، نحو المرأة الانتحارية. ولكنّ عيناها كانتا مغمضتين. دخل طبيبٌ وأبلغ أنطوان بلهجة صاحب مرآب بأنّه يستطيع مغادرة المستشفى.

مرّت بضعة أيام قبل أن يقرّر أنطوان أن يلقي نظرة على أسفل الورقة حيث سُجِّلَ رقم هاتف مركز تعليم الانتحار. أشرقت الشمس أخيراً على باريس. كانت عوادم السيارات تنثر ملوّثاتها كحبّات طلع عصرٍ جديد، زارعة في رئات الباريسيين والسيّاح النبات المستقبلي لحضارة مريضة. لقد أصبح احتضار النبات والأشجار والأعشاب، الصامت جداً وغير المرئي لأعينٍ لا ترى سوى ما يتحرّك، معياراً للحياة. ظلّت السيارات تخترع الإنسان الجديدَ الذي لم يعد يملك ساقين ليتجوّل وسط أحلامه المُقَطْرَنة، وإنّما عجلتين يسير بهما.

لم يكن لدى أنطوان هاتف فذهب إلى المقصورة الواقعة في زاوية الشارع، قبالة مخبزٍ. مسحت رائحة الخبز المحلّى الطازج روائح الحيّ المقزّزة. اضطرّ أنطوان لأن ينتظر قليلاً حتى تشغر المقصورة.

أعلنت شابّة بصوتٍ غنّاء:

- اس. بي. تي. بي. تي. ام. انتحار للجميع وبكلّ الوسائل، صباح الخير!

- صباح الخير، لقد حصلتُ على رقمكم من صديقة، وأودّ الانضمام إلى دورةٍ في مركزكم.

كان متشرّدٌ ملتصقاً بشبكة تهوية المخبز. حلّ قطعة خبزٍ يابسة ملفوفة في جوربٍ وتذوّقها مستنشقاً الروائح الزكية للمعجنات... ومازجاً إياها في فمه بالخبز الذي له مذاق الورق المقوّى.

- في هذه الحالة، يا سيّدي، أنصحك بالمجيء لمقابلتنا مباشرةً. لا توجد دروسٌ هذا الأسبوع بعد الشنق المذهل للبروفيسور إدموند، ولكن منذ الاثنين، ستؤمّن البروفيسورة آستانافيس الدروس. سأعطيك المواعيد. هل لديك ما تكتب به؟

- لحظة، لحظة من فضلكِ... نعم، أنا أسمعكِ.

- من الاثنين إلى الجمعة من الساعة السادسة مساءً حتى الساعة الثامنة، 7، ساحة كليشي. ليس عليك سوى أن ترنّ الهاتف الداخلي، نحن في الطابق الأرضي. وهناك إشارة إلى المركز.

يوم الاثنين التالي، وقف أنطوان أمام المبنى، في ساحة كليشي. بين لوحات أسماء الأطباء، ومراكز تعليم المسرح وقسمٍ للسكّيرين المجهولين وفرقة كشّافة وحزبٍ سياسي، وجد لوحة نحاسية كُتِبَ عليها: «اس. بي. تي. بي. تي. ام. جمعية تأسّست في عام 1742». ضغط أنطوان على الزرّ الذي يطلب فتح الباب الثقيل للمبنى. مقتفياً أثر اللافتات، وبعد أن حاذى ممرّاً، دخل من بابٍ مزدوجٍ إلى حجرة طويلة مضيئة بنوافذ كبيرة. كان هناك حوالي ثلاثين شخصاً سبقوه في الحضور. يقرأ بعضٌ منهم جالسين، وينتظر آخرون، أو يتناقشون في مجموعات صغيرة متفرقة. عزف رباعيّ معزوفةً لشوبير. وبدت سيّدة طويلة القامة وترتدي بزّة من السموكينغ الأسود مسؤولة عن المركز. استقبلت أنطوان بحفاوة وقدّمت نفسها على أنّها البروفيسورة آستانافيس. كان المشاركون شباباً وشيوخاً، من كلّ المنابت الاجتماعية، ومن كلّ الأنماط. بدوا هادئين؛ ينبشون في حقائبهم ويتناقشون ويتبادلون أوراقاً. بدؤوا بالجلوس. كان لدى معظمهم رزمة ورق أو دفتر. انتظروا أن يبدأ الدرس، والقلم في يدهم، وهم يهمسون ويضحكون.

كانت القاعة مليئة بحوالي عشرة صفوف من خمسة عشر كرسياً؛ وفي عمق القاعة، على منصّة، جلست البروفيسورة آستانافيس إلى مقرأ. جلس جميع التلاميذ. كانت الجدران الأربعة للقاعة مغطاة بصورٍ لمنتحرين مشهورين: جيراردي نيرفال، مارلين مونرو، جيل ديلوز، ستيفان زويغ، ميشيما،

هنري روردا، إيان كورتيس، رومان غاري، همنغواي وداليدا.

ضجّ الجمهور بكلماتٍ وضحكات كما قبل بداية أيّ درسٍ أو محاضرة. جلس أنطوان في أحد الصفوف الواقعة في المنتصف بين رجلٍ أنيقٍ ذي وجهٍ حازم وشابتين مبتسمتين. سعلت البروفيسورة في قبضة يدها. ساد الصمت.

- سيداتي وآنساتي وسادتي، قبل كلّ شيء، اسمحوا لي أن أعلن لكم، وإن كان بعضكم على علمٍ بذلك، الانتحار الناجح للبروفيسور إدموند. لقد فعلها!

أمسكت البروفيسورة آستانافيس بجهازٍ للتحكّم ووجّهته نحو الجدار المغطّى بلوحٍ أبيض. ظهرت صورة رجلٍ مدلّى في غرفة فندق. علاوة على ذلك، كانت أوردة رسغيه مفتوحة، وقد شكّل الدم بقعتين حمراوين كبيرتين على الموكيت الصوفيّ اللون. لا بدّ أنّ الجسد كان يهتزّ حينما التُقِطَت الصورة لأنّ وجهه كان مشوّشاً. صفّق المشاهدون من حول أنطوان وأدلوا، في ما بينهم، بتعليقات مادحة حول هذا الانتحار المُرتّب.

- لقد فعلها! وكما يمكنكم أن تروا، كي لا يُخفِق، وبدافع الأمان، في حال انقطع الحبل، فقد فتح أوردته. أعتقد أنّ هذا يستحقّ تصفيقاً إضافياً!

صفّق التلاميذ من جديد ونهضوا وصرخوا وصفّروا. ظلّ أنطوان جالساً وهو يراقب، مذهولاً، تظاهرة الابتهاج المحتفلة بموت رجلٍ.

قالت البروفيسورة وهي تشير إلى أنطوان:

- لدينا صديقٌ جديد هذا المساء. سأطلب منه أن يقدّم نفسه.

التفت الجميع نحو أنطوان. أمّا هو، وقد خجِل قليلاً من فكرة أن يتكلّم أمام الجمهور، فنهض تحت النظرات العطوفة والتشجيع الصامت للحضور.

- اسمي أنطوان... و... عمري خمسة وعشرين عاماً.

ردّ المشاركون في جوقةٍ:

- مرحباً، يا أنطوان!

تدخّلت البروفيسورة

- أنطوان، هلاّ أخبرتنا لماذا أنت هنا؟

شرح أنطوان، وهو لا يزال واقفاً، محرّكاً يديه بعصبية:

- حياتي كارثة. ولكن ليس هذا هو الأخطر. المشكلة الحقيقية هي أنني أدرك ذلك...

غمغمت البروفيسورة وهي تستند بيدها إلى المقرأ:

- واخترت أن تنتحر لتنساب وسط العدم المهدّئ.

- في الحقيقة، إن موهبتي في العيش أقلّ مما قد أحقّقه في الموت. لا شكّ أنّني سأكون أكثر قدرة وأنا ميّت منه وأنا حيّ.

وافقته البروفيسورة الرأي:

- أنا متأكّدة، يا أنطوان، من أنّك ستكون ميّتاً عظيماً. ومن أجل هذا أنا هنا: لكي أعلّمك، لكي أعلّم **حضرتك** التخلّص من هذه الحياة التي تمنحنا القليل وتأخذ منّا الكثير. نظريّتي...

نظريتي هي أنّه من الأفضل لنا أن نموت طالما لم تأخذ الحياة منّا كلّ شيء. يجب أن نحتفظ بالذخائر والطاقة للموت لا أن نبلغه فارغين تماماً مثل أولئك العجزة الساخطين والبائسين. لا يهمّني كثيراً إن كنتم مؤمنين أو ملحدين، لاأدريين أو مصابين بداء السكّري، هذا لا يعنيني. لدي بعض الأمور وسأحدّثكم عنها، ولكنني لستُ هنا لأقنعكم بالموت أو أشرح لكم ماهية الحياة والموت. هذه تجربتكم، أسبابكم، خياراتكم. نقطتنا المشتركة هي أن الحياة لا ترضينا وأنّنا نريد التخلّص منها، هذا كلّ ما في الأمر. سوف أعلّمكم كيف تنتحرون بطريقة ناجعة، لكي لا تفشلوا في محاولتكم، بطريقة جميلة، ومبتكرة. يركّز درسي على طريقة الموت لا أسبابه. لسنا كنيسة أو طائفة. في أيّ لحظة تشاؤون، يمكنكم أن تبكوا وتغادروا هذا المركز وتصرخوا: لكم الحقّ في فعل كلّ هذا، بل ويمكنكم أن تقعوا في غرام مَنْ بجواركم وتستعيدوا طعم الحياة... لمَ لا، هذا سيمنحكم وقتاً مناسباً، وإن كنّا نجازف بأن نلتقي مجدّداً بعد ستة أشهر. إن كنتُ، لسوء الحظّ، لا أزال هنا.

ضحك بعض جيران أنطوان. كانت البروفيسورة تتكلّم بهدوء، لا كخطيبٍ سياسي أو ديني، وإنّما برفاهية أستاذ آدابٍ أمام مدرّجٍ مليءٍ بطلبة منتبهين. كانت، ويداها في جيب سترتها السموكينغ، آسرة باعتدال بحيث لم تكن بحاجة إلى استخدام حركات تمثيلية وبلاغية مفرطة لإظهار مغالاة مصطنعة.

- هناك رقابة على الانتحار. رقابة سياسية ودينية واجتماعية

وحتى طبيعية، لأنّ السيّدة طبيعة لا تريد أن نتحرّر منها، إنّها تريد فرض إرادتها علينا حتى النهاية، إنّها تريد أن تقرّر نيابةً عنّا. مَنْ يقرّر موت البشر؟ لقد أحَلْنا هذه الحرية السامية إلى المرض والحوادث والجريمة. ونسمّي هذا الأمر الصدفة. ولكن هذا خطأ. هذه الصدفة، هي الإرادة البارعة للمجتمع الذي يسمّمنا تدريجياً بالتلوّث ويبيدنا بالحروب والحوادث... وهكذا يقرّر المجتمع تاريخ موتنا بنوعية غذائنا وخطورة بيئتنا اليومية وظروف عملنا وحياتنا. نحن لا نختار طريقة عيشنا ولا نختار لغتنا وبلدنا وعصرنا وأذواقنا، نحن لا نختار حياتنا. الحرية الوحيدة هي الموت؛ أن تكون حرّاً هو أن تموت.

شربت البروفيسورة قليلاً من الماء. أبقت ذراعها على حافة المقرأ. كانت تنظر بانتباه إلى جميع المشاركين في القاعة وتهزّ رأسها، متواطئة معهم، وكأنّ صداقة حميمة جامعة كانت تربطهم.

- ولكن كلّ هذا هُراء وهذيان. سنأتي إليه لاحقاً، سنأتي إلى التفكير بهذا الأمر، إلى إيجاد نبلٍ ما أو تسامٍ أو إقرارٍ شرعي أو سمّوٍ... لا أدري... وهمٌّ مطلَقٍ يُدعى الموت أو الحرية نريد مطابقته بمساواة تامّة. الحقيقة... حقيقتي - يجب أن يكون واضحاً، أنا أتحدّث عن نفسي -، هي أنني مريضة. لقد ارتأى سرطانٌ أنّ جسدي قد يكون جزيرة فردوسية رائعة، وهو بالتالي يقضي عطلته فيه، غامساً قدميه في محيط دمي ومعرّضاً بشرته لشمس قلبي... إنّه ليس بحاجة إلى مظلّة واقية من

الشمس، وهو يسخر من ضربات الشمس. إنّ إجازته المأجورة تشتمل على قتلي. أتألّم بفظاعة... تعلمون جميعاً عن ماذا أتحدّث. ولكي لا أتلوّى ألماً، أضطرّ لأن آخذ المورفين وأُتخَم بالمسكّنات... (أخرجت من جيب سترتها الداخلي علبة دواءٍ صغيرة ولوّحت بها)، هذا له ثمن، ثمن وعيي. ما زلتُ أتمتّع بكلّ عقلي، ولكن ثمّة خطر ألاّ يستمرّ هذا، ولذلك أفضّل أن أنهي نفسي بنفسي، بدل أن يفصل عنّي طبيبٌ الأجهزة وأنا ممدّدة بلا وعي على سرير مستشفى.

هذه حرّية تافهة، حرية بائسة. إذا كنتم هنا، فهذا لأنّكم أيضاً تعانون بلا شك من سرطانات في أعضاء جسمكم أو في روحكم، من أورام شعورية، من حالات لوكيميا عشقية ومن أمراض اجتماعية متنقّلة تنخر فيكم. وهذا ما يملي علينا خيارنا، قبل أيّ فكرة عظيمة عن حريتنا. لنكن صريحين: لو كنّا في صحّة جيّدة، لو كنّا محبوبين كما نستحق ونحظى بالتقدير وفي مكانٍ مشمسٍ جميلٍ وسط المجتمع، لكانت هذه القاعة خالية. وأنا متأكّدة من ذلك.

أنهت البروفيسورة عرضها. صفّق جميع الحاضرين؛ وقفت جارتا أنطوان، متأثرتين ومنفعلتين. نزعت البروفيسورة الوردة الحمراء من عروة سترتها ووضعتها في كأس الماء الموضوع على مقرئها. خلال الساعة والنصف التي تلت ذلك، أعطت البروفيسورة درسها. شرحت عدّة طرق للانتحار بنجاعة. علّمت تلاميذها كيف يربطون عقدة أنيقة ومتينة وأيّ أدوية يختارون

وكيف يعيِّرون جرعاتها ويركّبونها ليموتوا مرتاحين. أعطت وأعدّت وصفات لكوكتيلات مميتة بألوان جميلة وأكّدت على أنّها لذيذة. شرحت بالتفصيل مختلف الأسلحة النارية وتأثيراتها على عظام الجمجمة ونسيج الدماغ، حسب عيار الطلقة والمسافة؛ ونصحت، قبل الشروع بإطلاق رصاصة على الرأس، بالتقاط صورة إشعاعية للجمجمة لتحديد المكان الذي توضع عليه فوهة السلاح لكي لا تُخطئ الطلقة هدفها. وبمساعدة صور توضيحية شفّافة، شرحت لتلامذتها أيّ أوردة من الرسغ ينبغي قطعها وكيف وبوساطة ماذا ينبغي قطعها. ونصحت بعدم استخدام الوسائل غير المضمونة مثل الغاز. تحدّثت عن انتحار ميشيما وكاتون وآمبيدوكل وزويغ... كلّ عمليات الانتحار هذه التي ذاع صيتها في العالم. أخيراً، أنهت درسها بتأبين البروفيسور إدوارد، مذكّرة بأنّه من المفضّل التوفيق بين قوّتين مهلكتين لكي لا تخيب عملية الانتحار: أدوية وشنق، أوردة ومسدس...

انتهى الدرس، غادر أنطوان القاعة قبل أن يحاول أحدٌ الحديث معه. كان الرباعي قد بدأ بالعزف. لدى خروجه، مرّ أمام حانوت الجمعية الصغير الذي كان يعرض، في ديكورٍ فاتنٍ شبيه بديكور محلات بيع الألعاب، حبالاً جميلة وكراريس وكتباً وأسلحة وسموماً وفطوراً سامّة مجفّفة وكذلك ما هو ضروريّ لمصاحبة موتٍ جميل: خمور، أطعمة شهية، موسيقى. صعد إلى جادة كليشي إلى أن وصل إلى محطّة مترو لافورش؛

تموّجت المدينة في عينيه وكأنّه كان ثملاً. الآن وقد تعلّم كيف ينتحر، وقد فقد براءة الهاوي ليكتسب خبرة المحترف، لم تعد لديه الرغبة في ذلك.

لم يكن أنطوان يرغب في العيش، هذا مؤكّد، ولكنّه أيضاً لم يكن يريد أن يموت.

- لا أدري إن لاحظت، ولكن بوساطة الأبعاد والدائرة وثقل الرغيف المستطيل يمكن الحصول على العدد الذهبي(*).

لا شكّ أنّ هذه ليست صدفة.

امتثل الخبّاز وأعطاه رغيفاً كاملاً.

كان أنطوان يقيم في مونتروي، في أطراف باريس. الأمر الذي كان يعني لآسلي بأنّه يقيم في حقل الرزّ الباريسي. آسلي صديقه الأوفى. لم يكن أنطوان يناديه أبداً باسمه الكامل وإنّما بالاختصار آس. وكان ذلك يفرحه لأنّ آس يعني بلغة ساموا - وآسلي من أهلها - «ماء الجبل».

يتجاوز طوله المترين، ولكنّه يتنقّل برشاقة حوتٍ في الماء.

وله طبعٌ مدهش، يعود إلى طفولته.

اعتادت شركة نستله أن تجرّب المنتجات الجديدة قبل

(*) العدد الذهبي أو النسبة الذهبية ويرمز إليه بالحرف ف نسبة إلى النحات الإغريقي فيدياس وهو مفهوم يدخل في الكثير من الفلسفات وخاصة الدينية منها في مجال عمارة دور العبادة. (المترجم)

طرحها في السوق على عيّنة من المستهلكين. ولأنّ والدي آسلي كانا فقيرين، سجّلاه في عيّنة الاختبارات لقاء قسائم شراء للطعام. في تلك الفترة، أرادت شركة نستله أن تطرح تشكيلة جديدة من العبوات الصغيرة للأطفال تحتوي فيتامينات وفوسفور. والفوسفور، بجرعاتٍ ضئيلة جداً، مفيدٌ للصحّة، ولكن كان هناك خطأ في العيار في المصنع، إذ أضاف مهندسٌ، خطأً، كيلوغراماً من الفوسفور بدل ميكروغرام. في أعقاب ذاك الخطأ الصناعي؛ لم يمت جميع أطفال الاختبارات، وعانى الناجون من السرطانات ومن أمراض خطيرة أخرى. وكان آسلي محظوظاً نسبياً إذ إنّه لم يُصَب سوى باضطرابات عقلية أربكت نموّه العقلي. لم يكن يعاني من قصورٍ عقليّ بمعنى الكلمة، وإنّما فقط كان ذهنه يسلك دروباً خاصّة ويتبع عقله منطقاً لا يقاسمه فيه أحدٌ. ومن العواقب الأخرى لهذه العلب الصغيرة العالية الفوسفور التي قُدِّمت للأطفال هو أنّ آسلي يشعّ في العتمة. شيءٌ بهيٌّ جداً. حينما يتجوّلان مساءً في الشوارع، يبدو آس إلى جانب أنطوان كحشرة قُطرب عملاقة تنير دربهم في الأزقّة الخالية من المصابيح. ولمعالجة آلامه، كان آس قد أمضى طفولته في دارٍ خاصّة للتربية. لسنواتٍ طويلة، ظلّ صامتاً، لم ينجح أيّ تمرين كلاسيكي في إخراجه من صمته. ثمّ اكتشفت طبيبة نُطقٍ هاوية للشِعر أنّ الوسيلة الوحيدة لجعل آس يتكلّم هي معالجته بالشعر. كان نطقه المعاق بحاجة إلى قدمين: أصبح الشعر عكازات لكلماته. عاد تدريجياً إلى الحياة شبه

العادية وغادر المستشفى في سنّ الثالثة عشرة. منذ ذلك الحين، ورغم طبعه الهادئ الذي يجعله شبيهاً بدبدوبٍ ضخم أكثر منه حارسٍ ليليٍّ روماني، عمِل حارساً؛ إذ اعتُبِر طوله الهائل مرعباً للصوص المحتَمَلين. كانت ميزتان أخريان ذات تأثيرٍ على اللصوص النادرين الذين جابههم:

أوّلاً، جعله إشراقه يبدو كشبحٍ، في ظهورٍ غير طبيعي؛ ومن ثمّ، إن لم يفرّ السارق أو يُغمى عليه، كان كلام آس الشعري يُرعبه.

عمِل منذ سنتين حارساً في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي لحديقة النباتات.

والتقى به أنطوان هناك. كان آس مغرماً بالتجوال في طوابق المعرض الشاسع للتنمية بعد دوامه. مكانٌ مدهشٌ فيه الآلاف من الحيوانات المحنّطة يمنح الزائر شعوراً بالتنزّه في سفينة نوح وقد وقف بها الزمن. ينبعثُ جوٌّ من الغرابة من ذاك المكان ذي النور الخافت؛ إذ يحيط الظليل المتعاكس مع الضوء المسلّط على الحيوانات بالفضوليين الذين يغمغمون ويهمسون خشية أن يوقظوا الأفيال والحيوانات المتوحشة والعصافير. ذات صباح، كان أنطوان يزور المعرض للمرّة الأولى ويتجوّل فيه بذهولٍ وتلهّف منبهراً بالحيوانات الآسرة في وضعيات مذهلة ويقرأ بطاقات التعريف بحياتها وموطنها. وهو يتسكّع في أروقة المتحف، كان عقله النهم يتغذّى بكل تلك الثقافة المعروضة. لفت شكلٌ غامضٌ مضاءٌ على نحوٍ غريب انتباهه. اعتقد في البداية أنّه شكلٌ

يمثّل نوعاً من إنسان النياندرتال أو نموذجاً نادراً من رجل الثلج الأمرد وقد أُلبِس ثياباً ووضعت في قدميه نعالٌ. أخفض أنطوان نظره بحثاً عن بطاقة تعريفية، عن نبذة علمية حول أصل وعصر هذا النموذج الغريب. بحث عند قدمي المخلوق الغريب ولكنه لم يجد شيئاً. رفع رأسه: ابتسم له المخلوق ومدّ إليه يده الضخمة. وهكذا أصبحا صديقين. كانا دائماً معاً. لم يكن آس يتكلّم كثيراً وهو ما يناسب أنطوان ذي الفكر والكلام الهائجين. كان آس يقطع أسئلته الأبدية بأبياتٍ شعرية من البحر الإسكندري(*) والتي كانت، بأقدامها الاثني عشرة أرحب وأشمل في معانيها من هذر أنطوان وإطنابه. أحبّ أنطوان توليفة كلمات آس وشاعريتها، وأحبّ آس، بالمقابل، فيض كلمات أنطوان وغابتها الكثيفة.

التقى شارلوت وغانجا ورودولف وآس وأنطوان مساءً في الحانة الأيسلندية الصغيرة في شارع رامبوتو، غودموندسدوتير. لعبوا الشطرنج وتناقشوا وهم يلتهمون مشروباتٍ وأطباقاً بأسماءٍ لا يمكن لفظها وخلطات غريبة. لم يكن يعرفون ماذا يأكلون، إن كان لحماً أم سمكاً، وما هي هذه الخضار الغريبة، ولكن تلك النكهات الجديدة سلّتهم. كان ذاك البار - المطعم مكاناً للقاء الأيسلنديين المغتربين وكذلك لكلّ الزبائن الذين يلهجون باللغة الغريبة نفسها. وقد لاحظ أنطوان أنّ ثمّة في هذا المكان

(*) بحرٌ شعري من اثني عشر مقطعاً صوتياً. (المترجم)

سببٌ منطقي لعدم فهم ما يقوله الناس. في هذا المكان القصي، لعبَ، لأمسياتٍ عديدة من الأسبوع، مع أصدقائه، لعبة الصورة الصينية ولعبة اختراع بلدان جديدة ولعبةً أسموها «لعبة العالم ينقسم إلى عالمين». تقوم هذه اللعبة على إيجاد انقسامات العالم الحقيقية الكبيرة، الانقسامات الفعلية لأنّ العالم منقسمٌ بالتأكيد إلى عالمين: الذين يحبّون التنزّه بدراجة والذين يسيرون سريعاً بالسيارة؛ الذين يتركون قميصهم خارج السروال والذين يضعونه داخله؛ الذين يشربون الشاي بلا سكّر والذين يشربونه بالسكّر؛ الذين يعتقدون أن شكسبير هو أعظم كاتب في كلّ العصور والذين يعتقدون أنّ أندريه جيد هو الأعظم؛ الذين يحبّون **سمبسون** والذين يحبون **ساوث بارك**؛ الذين يحبون **نوتيلا** والذين يحبونِ كرنب بروكسل. وباهتمامٍ أنثروبولوجيٍّ حقيقي، ألّفوا قوائم التقسيمات الأساسية للبشرية.

وخلال أحد اجتماعاتهم السرية تلك، بعد أسبوعٍ من خروجه من المستشفى، يوم الخميس 20 تموز/ يوليو، أعلن أنطوان لأصدقائه عزمه على أن يصبح غبياً.

امتلأ المطعم. خرج رجل فايكينغ قصير جداً من الساعة المعلّقة على الجدار وضرب بفأسه عشر ضربات على الترس. حوّل صخب الأحاديث باللغة الأيسلندية والموسيقى الشعبية طاولة أنطوان وأصدقائه إلى جزيرة صغيرة. امتزجت روائح الطبخ والبيرة وشكّلت ما يشبه سحابة عائمة في صالة المطعم الصغيرة. تحِوّلت وحوشٌ وآلهة من الميثولوجيا الأيسلندية إلى فوانيس مشعّة فوق رؤوس الزبائن. تعرّجت النكهات الفائضة بين الطاولات المتراصة والغاصّة بالزبائن. أخرج أنطوان من حقيبته الدفتر الضخم الذي دوّن فيه آرائه السياسية جهاراً. طلب من أصدقائه عدم مقاطعته وبدأ يقرأ بصوتٍ متوتّر ومتأثّر:

«ثمّة أناسٌ لا تنجح معهم أفضل الأمور. قد يرتدون بزّة من الكشمير، ولكن لهم هيئة المتسوّلين؛ أثرياء ولكن مديونون؛ طوال القامة ولكن فاشلون في كرة السلة. اليوم، أنا أدرك ذلك، أنا أنتمي إلى فصيلة أولئك الذين لا يستطيعون إثمار حسناتهم، بل ممّن تتحوّل حسناتهم سيئات.

«خذوا الحقيقة من أفواه الأطفال. في المدرسة الابتدائية،

تُعتَبَر شتيمةٌ بذيئة ذكاءً؛ فيما بعد، يكاد يكون كون المرء مثقفاً مزية. ولكن هذه كذبة: الذكاء عاهة. تماماً كما يعلم الأحياء بأنّهم سيموتون، في حين لا يعلم الأموات شيئاً، أعتقد أنّ كون المرء ذكياً أسوأ من أن يكون أحمقاً، لأنّ الشخص الأحمق لا يفهم، في حين أنّ الشخص الذكيّ، وإن كان متواضعاً ووضيعاً، مرغمٌ على ذلك.

«لقد كُتِبَ في سِفر **الجامعة** أنّ «مَنْ يُزيد علمه، يُزيد ألمه»؛ ولكن لأنني لم أحظَ قط بسعادة الذهاب إلى التعليم المسيحي مع بقية الأطفال، لم أُحذَّر من مخاطر الدراسة. للمسيحيين، منذ نعومة أظفارهم، الفرصة ليُحذّروا من خطر الذكاء؛ وبالتالي سيُجيدون طيلة حياتهم اجتنابه. ويكونون سعداء بسذاجتهم.

«إنّ الذين يعتقدون أنّ للذكاء شيءٌ من النبالة ليس لديهم بالتأكيد ما يكفي منه ليدركوا أنّه ليس سوى لعنة. لطالما وجد المحيطون بي وزملائي في الصفّ وأساتذتي والجميع بأنني ذكيّ. لم أدرِ قط لماذا وكيف توصّلوا إلى هذا الحُكم على شخصي. غالباً ما عانيتُ من هذه العنصرية الإيجابية من لدن الذين يخلطون بين مظاهر الذكاء والذكاء نفسه، ويحكمون، من خلال حكمٍ مسبقٍ محابٍ وزائف، على أنّك تجسّد تعبيراً للسلطة. وفي حين يشطح الشاب أو الشابة الأكثر جمالاً في الرأي، يعتبرني من هم أقلّ جمالاً المخلوقَ الذكي والمثقّف. كم كنتُ أكره تلك الجلسات التي أشارك فيها، رغماً عنّي، في التجريح والحطّ من قيمة صبيان وصبايا اعتُبِروا أقلّ نباهةً!

«لم أكن رياضياً قط؛ كانت آخر المنافسات الهامّة التي أرهقت عضلاتي هي مسابقات رمي الكرة في باحة المدرسة الابتدائية. لم تكن ذراعاي الرفيعتان ونفَسي القصير وساقاي البطيئتان تسمح لي ببذل الجهود الضرورية لركل كرةٍ بفاعلية. لم أكن أمتلك سوى القوّة على نبش العالم بعقلي. وإذ كنتُ هزيلاً جداً في الرياضة، لم يتبقّ لي سوى الخلايا العصبية لأخترع ألعاباً للكرة. كان الذكاء السبيل الوحيد المتبقي لي.

«الذكاء هو إخفاقٌ في الارتقاء. في عصر الإنسان البدائي ما قبل التاريخي، أتخيّل جيداً، وسط قبيلة صغيرة، كلّ الأطفال وهم يركضون وسط الأدغال، ويطاردون العظّايات، ويقطفون العنبيّات للعشاء؛ ويتعلّمون تدريجياً، من خلال احتكاكهم بالبالغين، أن يكونوا رجالاً ونساءً كاملين: صيّادون، قطّافون، صيادو سمك، دبّاغون... ولكن إذا أمعنّا النظر في حياة هذه القبيلة، سنكتشف أنّ بعض الأطفال لا يشاركون في أنشطة الجماعة: يظلّون جالسين قرب النار، آمنين داخل الكهف. سوف لن يحسنوا قط الدفاع عن أنفسهم ضدّ نمورٍ بأنيابٍ قاطعة، ولا أن يصطادوا؛ سوف لن يبقوا، باستسلامهم، أحياء لليلة واحدة. وإذا كانوا يمضون أيامهم دون أن يفعلوا شيئاً، فذلك ليس بسبب الكسل والخمول، بل يرغبون في أن يقفزوا ويلهوا مع زملائهم ولكنّهم لا يستطيعون. فالطبيعة، حينما أنجبتهم إلى الدنيا، أصابتهم بالعجز. في هذه القبيلة الصغيرة، ثمّة طفلةٌ ضريرة وصبيٌّ أعرج، وآخرٌ أخرق وشارد الذهن...

وبالتالي، يلزمون طيلة النهار مسكنهم، ولأنّ ليس لديهم ما يفعلوه سوى ألعاب الفيديو التي لم تُختَرَع بعد، يضطرون للتفكير وترك أفكارهم شاردة. فيمضون وقتهم في التفكير، في محاولة حلّ طلاسم العالم، في تخيّل حكايات وابتكارات. وهكذا تولَد الحضارة: لأنّ أولاداً عاجزين ليس لديهم ما يفعلونه غير ذلك.

لو لم تشوّه الطبيعة أحداً ولو خلا القالب في كلّ مرّة من العيوب، لظلّت الإنسانية نوعاً من البشر البدائيين، السعداء، من دون أيّ تفكيرٍ بالتطوّر، ويعيشون بخيرٍ من دون العقاقير المضادة للضغط ولا الواقيات الذكرية ولا قارئة D.V.D من ماركة دولبي الرقمية.

«أن يكون المرء فضولياً، ويريد أن يعرف الطبيعة والبشر، وأن يكتشف الفنون، عليه أن يكون غرض كلّ عقل. ولكن لو كان كذلك، مع التنظيم الحالي للعمل، لتوقّف العالم عن الدوران ببساطة لأنّ هذا يستغرق وقتاً وينمّي الحسّ النقدي. لما عاد شخصٌ يعمل. ولهذا للناس ما يحبّونه وما يكرهونه، ما يهتمون به وما لا يهتمون به. لأنّه، بخلاف ذلك، لن يكون هناك مجتمع. إنّ الذين يهتمون بأمور كثيرة، الذين يهتمون حتى بالمسائل التي لا تهمّهم بداهةً - والذين يريدون فهم أسباب لامبالاتهم - يدفعون ثمن ذلك نوعاً من العزلة. وللهروب من هذا النبْذ، لا بدّ من التزوّد بذكاءٍ ذي وظيفة، ذكاء يخدم علماً أو قضية أو مهنة؛ بكل بساطة، ذكاء يفيد في شيءٍ ما. ذكائي المفترَض، المستقل للغاية، لا يفيد في شيء، أي لا يمكن

الاستعانة به لكي يُستَخدَم من قبل الجامعة أو من قبل منشأة أو صحيفة أو مكتب محاماة.

«أعاني من لعنة العقل؛ أنا فقير، أعزب، محبَط نفسياً. مرّت شهورٌ وأنا أفكّر في مرضي ألا وهو الإفراط في التفكير، واكتشفتُ بيقين الصلة بين شقائي وتطرّف عقلي. التفكير، السعي للفهم لم يجلب لي أيّ شيء ولكنّه لعب باستمرار ضدّي. ليس التفكير عملية طبيعية، إنّه يُجرح كقطعٍ من الزجاج والأسلاك الشائكة السابحة في الهواء. لا أستطيع إيقاف دماغي، أو إبطاء إيقاعه. أشعر وكأنني قاطرة، قاطرة قديمة تُسرع على سكّة حديدية ولا يمكنها التوقّف أبداً لأنّ العالم هو المحرّك الذي يمنحها طاقتها المدوّخة ووقودها. كلّ ما أراه من معانٍ ومن مقاصد يندفع في موقد ذهني ويزيد من سرعته ويُديره بانتظام. السعي للفهم هو انتحار اجتماعي، أي أن يكفّ الإنسان عن الاستمتاع بالحياة دون أن يشعر بنفسه، رغماً عنه، مثل طيرٍ جارحٍ، مثل عُقابٍ يمزّق لوازمه المدرسية. إنّ ما نسعى إلى فهمه، غالباً ما نقتله، لأنّه، كالطبيب المتمرّن، ليس هناك معرفة حقيقية من دون تشريح: إذ نكتشف الأوردة ودوران الدم وبنية الهيكل العظمي والأعصاب والعمل الداخلي للجسم. وذات ليلة مرعبة، نلتقي في قبو كنيسة رطبٍ ومعتم وفي أيدينا مبضعٌ ملطّخٌ بالدم ونعاني من حالات غثيانٍ متواصلة، مع جثّةٍ باردة ومشوّهة على طاولةٍ معدنية. وبعد ذلك، يمكننا دائماً أن نسعى لأن نكون الدكتور فرانكشتاين، وأن نرمّق كلّ ذلك لنجعل

منه كائناً حيّاً، ولكن الخطر يكمن في صنع وحشٍ قاتل. لقد عشتُ كثيراً في مشارح الجثث؛ اليوم أستشعر قرب خطر الكلبية(*) والمرارة والحزن اللامتناهي؛ وسرعان ما نصبح منذورين للشقاء. ليس من الممكن أن يعيش المرء واعياً جداً، مفكّراً جداً. من جهة أخرى، لننظر إلى الطبيعة: كل ما يحيا طويلاً وسعيداً ليس ذكياً. السلاحف تعيش قروناً، والماء خالدٌ ولا يزال ميلتون فريدمان حيّاً. في الطبيعة، الوعي هو الاستثناء، بل يمكننا اعتباره عرضاً لأنّه لا يضمن أيّ تفوّق، ولا أيّ امتداد خاصٍّ في الزمن. والوعي، في إطار تطوّر الأنواع، ليس علامة على تكيّفٍ أمثل.

إنّ الحشرات بعمرها وعددها والمساحة التي تشغلها هي السادة الحقيقيون للكوكب. التنظيم الاجتماعي للنمل، على سبيل المثال، أكثر تنافسية وأرفع أداءً من تنظيمنا الاجتماعي، وليس لأيّ نملةٍ مقعدٌ في جامعة السوربون.

«**للجميع ما يقولونه عن النساء، والرجال ورجال الشرطة والقتَلة**. نحن نعمّم الأمور انطلاقاً من تجربتنا الخاصّة، ممّا يناسبنا، ممّا يمكننا فهمه بالوسائل الهزيلة لشبكاتنا العصبية وتبعاً لمنظور رؤيتنا. إنّ السهولة هي التي تسمح بأن نفكّر تفكيراً سريعاً ونحكم على الأمور ونحدّد موقفنا منها. ليس لهذا الأمر

(*) مذهب فلسفي أنشأه انتيستين وديوجين يقول باحتقار العرف والتقاليد والرأي العام والأخلاق الشائعة. (المترجم)

من قيمة بذاتها، إنّها إشاراتٌ ورايات صغيرة يلوّح بها كلّ شخص. ويدافع الجميع عن حقيقة منافعهم وجنسهم وثروتهم.

«في الجدل، تقدّم العموميات ميزة بساطة وسلاسة البراهين، ميزة فهمها السهل وبالتالي ميزة تأثيرٍ أكبر على المستمعين. بلغة رياضية، النقاشات المرتكزة على العموميات هي إضافات، عمليات حسابية بسيطة، تقنع الناس، بفضل وضوحها، بفضل ملاءمتها. في حين أنّ نقاشاً جدّياً سيعطي فكرة منظومة من المتباينات الجبرية ذات مجاهيل عديدة، منظومة من التكاملات والشعوذات المصحوبة بالعديد من التعقيدات.

«إنّ شخصاً عاقلاً سيشعر دائماً، وسط نقاشٍ، بالتبسيط، وستكون رغبته الوحيدة القيام بتشطيبات ووضع علامات نجمية على بعض الكلمات وملاحظات في أسفل الصفحة وتعليقات في نهاية المخطوطة ليعبّر حقّاً عن فكره. ولكن في نقاشٍ يجري في ركنٍ من ممرّ، أو أثناء عشاءٍ أو على صفحات صحيفة، قلّما يكون ذلك ممكناً: فالموضوع ليس موضوع قسوة وموضوعية وتجرّد ونزاهة. الفضيلة هي عقبة بلاغية، وهي غير ناجعة في جدلٍ. بعض العقول النيّرة، التي ترى الخواء الضروري لكلّ نقاش، اختارت أن تتخابث وتوسوس بالتعقيد عبر المفارقة والدعابة المواربة. لما لا، ففي النهاية هذه وسيلة للنجاة.

«يبسّط البشر العالم باللغة والفكر، وبذلك تكون لديهم يقينيات؛ وامتلاك اليقينيات هو الشهوة الأقوى في هذا العالم، إنّها أقوى بكثيرٍ من المال ومن الجنس ومن السلطة معاً. إن

التخلّي عن ذكاءٍ حقيقي هو الثمن الذي ينبغي دفعه لامتلاك اليقينيات، وهذا دائماً مصروفٌ مستور في مصرف وعينا. على هذا، أنا أفضّل أيضاً الذين لا يتلفّحون بمعطف العقل ويؤكّدون وهْم اعتقادهم. وكذلك المؤمن الذي يقرّ بأنّ إيمانه ليس سوى اعتقاد وليس شَفْعة على حقيقة الأشياء الواقعية.

«هناك مثلٌ صيني يقول، ما معناه، إنّ السمكة لا تعرف ما تفعله حينما تبول. وهذا يُقال عن المثقّفين. المُثقّف يُعتَبَر ذكياً، لأنّه يستخدم دماغه. يستخدم البنّاءُ يديه، ولكن لديه أيضاً دماغ يستطيع أن يقول له: «هيه! هذا الجدار ليس مستقيماً، كما أنّك لم تضع الملاط بين الأحجار». هناك تواصلٌ بين عمله وعقله. المثقّف العامل بعقله لا يمتلك هذا التواصل، إذ لا تتحرّك يديه لتقول له: «هيه، أيّها الرجل الطيّب، أنت تخدع نفسك! الأرض كروية». المثقّف يفتقر إلى هذا الاختلال، وبالتالي يعتقد أنّه قادر على امتلاك رأي واضح حول كلّ المسائل. المثقّف يشبه عازف البيانو الذي، لأنّه يستخدم يديه ببراعة، يعتقد بأنّه يمتلك طبيعة كفاءةَ أن يكون لاعب بوكر وملاكماً وجرّاح أعصاب ورسّاماً.

«من البديهي أنّ المثقّفين ليسوا الوحيدين المعنيين بالذكاء. عموماً، حينما يبدأ شخصٌ بالقول: «ليس هذا لأكون ديماغوجياً، ولكن...»، هذا في الواقع ليكون ديماغوجياً. إذاً، لا أدري بالضبط كيف أصف ما يُمكن أن يُفسّر على أنّه شيءٌ من التنازل. أنا مقتنعٌ بأنّ الذكاء فضيلة يتقاسمها مجموع الناس دون

تمييزٍ اجتماعي: هناك النسبة نفسها من الناس الأذكياء بين أساتذة التاريخ والبحارة الصيّادين البريتونيين، عند الكتّاب وضاربي الآلة الكاتبة... هذا نابعٌ من تجربتي، من فرط ما عاشرت أدمغة بنّاءة ومفكّرين وأساتذة ومثقّفين حمقى، وفي الوقت ذاته، أناس عاديين، أذكياء من دون شهادة ذكاء، من دون الهالة المؤسّسية. لا يمكنني أن أقول شيئاً آخر. هذا أمرٌ مشكوكٌ فيه لا سيما وأنّه من المستحيل إجراء دراسة علمية عنه. أن تجد شخصاً ذكياً، عاقلاً ورشيداً، ليس أمراً مرتبطاً بالشهادة؛ إذ ليس هناك اختبار ذكاء لكشف ما يمكن تسميته بالعقل السليم. أفكّر مجدّداً في ما كان يقوله مايكل هير، كاتب سيناريو فيلم **فول ميتال جاكيت**، في الكتاب الرائع لمايكل سيمنت حول كوبريك: «إنّ غباء الناس لا ينبع من افتقارهم للذكاء، وإنّما من غياب شجاعتهم».

«شيءٌ واحدٌ يمكن القبول به، إن لم يجعل الاطّلاع على الأعمال العظيمة واستخدام العقل وقراءة أعمال العباقرة المرء ذكياً بالتأكيد، فإنّه يجعل الخطر أكثر احتمالاً. طبعاً، هناك مَنْ قرؤوا فرويد وأفلاطون ويجيدون التغلّب على الجزيئات بسهولة والتمييز بين شاهينٍ وعُقابٍ وهناك حمقى.

مع ذلك، من المحتمل أن يجد الذكاء، إذا ما احتكّ المرء بالكثير من المحفّزات وأعمل عقله في جوٍّ مثرٍ، تربة صالحة لنموّه، تماماً بطريقة المرض نفسها. لأنّ الذكاء مرضٌ».

أخيراً، قرأ أنطوان الخاتمة. أغلق دفتره ونظر إلى أصدقائه بهيئة العالم الذي أقام البرهان القاطع لأحد أكبر الألغاز العلمية أمام مجلسٍ لزملاءٍ متميّزين مذهولين.

أطلق غانجا ضحكة صاخبة أحيت كلّ السهرة؛ مدّ أيسلندي جالسٌ إلى طاولة خلفهم علبة سجائره نحوه: وكأنّ ضحكة غانجا المرتعشة كانت تعني باللغة الأيسلندية شيئاً من قبيل «من فضلك، هل لديك سجائر؟». وهكذا، وفي كلّ مرّة ضحك فيها غانجا، كان أيسلندي لطيف يقدّم له سيجارة. أشار رودولف إلى أنّه ما كان على أنطوان أن يجهد نفسه كثيراً ليكون غبياً؛ أمسكت شارلوت يده بحنان؛ نظر إليه آس بعينيه الواسعتين المذهولتين.

وببساطة مؤثّرة، شرح أنطوان بأنّه يعجز عن منع نفسه من التفكير، من محاولة الفهم، وأنّ هذا الأمر قد جعله تعيساً. وإذا كانت الدراسة تمنحه أيضاً فرحة الباحث عن الذهب... إلا أنّ الذهب الذي يعثر عليه، بلون ووزن الرصاص. لم يكن عقله يتيح له أيّ راحة، كان يمنعه من النوم بتساؤلاته المستمرّة ويوقظه في عزّ الليل بشكوكه ونقمته وسخطه. روى أنطوان لأصدقائه بأنّه منذ زمنٍ طويل لم يعد لديه لا أحلام ولا كوابيس لفرط ما تملأ أفكاره فضاء نومه. كان أنطوان، لفرط التفكير وتورّم الوعي، يحيا حياة بائسة. وهو يريد الآن أن يكون أقلّ

وعياً وأكثر جهلاً بالقضايا والحقائق والواقع. . . لقد عانى ما يكفي من حدّة النظر التي منحته صورة رديئة عن العلاقات الإنسانية. يريد أن يعيش، لا أن يعرف حقيقة الحياة، أن يعيش فقط.

ذكّر أصدقاءه المضطربين بمحاولته لأن يصبح سكيراً وبمشروع انتحاره المجهَض. كان الغباء فرصته الأخيرة في النجاة. لم يكن يعرف بعد كيف سيتصرّف ولكنّه وعدهم بأن يكرّس كلّ إرادته ليصبح غبياً. كان يأمل في أن يضيف قليلاً من الماء إلى خمره الخالي من الكحول وأن يتروّض ويتخلّص من هذه الأحكام المسبقة التي تُسمّى حقائق. لم يشأ أنطوان أن يكون أحمقاً خالصاً، وإنّما أن يذيب ذكاءه في مزيج الحياة، وألا يسترسل في تحليل كلّ شيء، وألاّ يدقّق في كلّ شيء. كان عقله على الدوام نسراً ذا عينٍ ثاقبة وبراثن ومنقارٍ بتّار. اليوم، يريد أن يعلّمه أن يكون كُركيّاً مهيباً يحلّق في السماء ويستسلم للريح ويستمتع بدفء الشمس وجمال الطبيعة.

لم يقصد أنطوان أن يهجر العقل مجّاناً: كان الهدف المشاركة في الحياة وسط المجتمع. لقد سعى دائماً إلى إيجاد محرّك الدوافع عند كلّ فرد، فهو يعلم كم كان هامش حريّة الاختيار ضيّقاً أمام إبداء الآراء. كان قسطاً من شقائه ينبع من حقيقة كونه يعيش تحت تأثير المأساة التي عبّر عنها جان رينوار، أيّ أنّ «الشقاء في هذا العالم هو أنّ لكلّ دوافعه» ومثل كهنوتٍ، كان يعلّق عبارة سبينوزا: «لا تبكي، لا تضحك، لا تكره، وإنّما

فكّر»، سعى دائماً إلى عدم الحكم، حتى على مَنْ أراد تجريحه أو إخضاعه. كان أنطوان من النوع الذي يستطيع صنع جهاز أسنانٍ للقرش ويحاول زرعه في فكّه. وإذا كان يحاول أن يفهم، فليس بالطريقة الدينية القائمة على التسامح مع كلّ شيء عبر التنازل. كان يرى، ربّما على نحوٍ مبالغٍ فيه، تحت بريق الحرّية والاختيار ضرورة وميكانيك آلة تتغذّى على الأرواح البشرية. في الوقت ذاته، لأنّه حاول أن يكون موضوعياً حيال ذاته كما حيال الآخرين، اكتشف أنّ بمحاولته فهم كلّ شيء تعلّم ألاّ يعيش وألاّ يحب، وأنّ بوسع المرء أن يفسّر نزاهته الفكرية المتطرفة على أنّه خوفٌ من الانخراط في الحياة ومن شَغْل مكانٍ معيّنٍ فيها. أدرك هذه الحقيقة التي دفعته لاتّخاذ قراره.

أضاف:

- ولكنّ الحقيقة، مثلها مثل **جانوس**(*)، لها وجهان، وحتى الآن، لم أعش سوى وجهها القاتم. وسوف أجوب وجهها المضيء. نسيان الإدراك وعدم الشغف بالشأن اليومي، وتصديق بالسياسة، وشراء ثياب جميلة ومتابعة الأحداث الرياضية، والحلم بآخر طراز من السيارات، ومشاهدة الأخبار التلفزيونية، والتجرّؤ على كره الأشياء... لم أقدّر هذه الأمور حقّ قدرها، نتيجة اهتمامي بكلّ شيء، وعدم شغفي بأيّ شيء.

(*) جانوس هو حارس بوابة السماء وكان إلهاً مهماً لأن قوة البيت تأتي من قوة بوابته. وكان له وجهان واحد من الأمام والآخر من الخلف. (المترجم)

لا أقول إنّ هذا جيّد أو سيّئ، فقط سأحاول، وسأشارك، نعم سأشارك في هذا العقل الكبير الذي يُدعى «الرأي العام». سأكون مع الآخرين، لن أفهمهم وإنّما سأكون مثلهم، سأكون بينهم، أقاسمهم الأمور ذاتها...

قال غانجا بهدوء وهو يمضغ حبوباً طبية:

- تريد أن تقول بأنّك كنت غبياً بمحاولتك أن تكون ذكياً جداً، وأنّ الشخص يكون ذكياً إن كان على شيءٍ من الغباء...

قالت شارلوت:

- أمّا نحن، فنحبّك هكذا كما أنت، أنت معقّد بعض الشيء ولكنّك... شخصٌ رائع. لو كنتُ غيرية...

ردّ أنطوان:

- وأنا، يا شارلوت، لو كنتُ دانماركياً، لطلبتُكِ للزواج. اسمعي. لطالما بدت لي النزعة اللااجتماعية الأمر الأكثر طبيعياً في العالم، بل إنّه لأمرٌ طيّب أن يكون للمرء مشاكل مع المجتمع. لا أريد أن أكون مندمجاً تماماً، ولكنني أيضاً لا أريد أن أكون منعزلاً.

قال غانجا:

- يجب أن تحقّق التوازن.

تابعت شارلوت:

- نعم، أو عدم توازنٍ متوازن.

أحضر لهم النادل زبادي حساءٍ سميكٍ مائلٍ للخضرة، وأكواباً مليئة بسائلٍ عكرٍ تطفو على سطحه ثمرات عنبية حمراء

صغيرة. انحنى الأصدقاء الخمسة بحذرٍ على طعامهم. أخرج النادل كتلة من الأحرف الساكنة من حنجرته والتي لا بدّ أنّها كانت تعني شيئاً من قبيل «هنيئاً». فسأل آس أنطوان بنغمة شعرية إن لم يكن هناك خطر أن يتوه تماماً وأن يُشاهَد ذات يوم وقد أصبح مذيعاً في التلفزيون. أجاب أنطوان بأنّ هذه مغامرة، وأنّ المغامرات الإنسانية الكبيرة لا تعدم المخاطر: ماجلان وكوك وجيوردانو برونو أمثلة على ذلك. حتى الآن، عاش في عين الإعصار، المكان الهادئ والمنعزل المُحاط بالعاصفة الأكثر جهنّمية. أراد أن يغادر هذا العشّ الملعون، ويعبر هذا الستار من الأعاصير المدمِّرة لينضمّ إلى العالم الدنيوي. وإذ انتابهم القلق والحزن عليه، شدّ أصدقاء أنطوان من أزره وأخذوا منه وعداً بألاّ يرتكب حماقات ونجحوا في إقناعه بالذهاب لطلب المشورة من طبيبه ومؤتمن أسراره إدغار.

تقع عيادة الدكتور إدغار فابورسكي في الطابق الثالث من عمارة جميلة في الدائرة العشرين، شارع بيرينيه، قرب ساحة غامبيتا. كان أنطوان يراجعه مذ كان في الثانية من عمره ولم يكن له أيّ طبيب سواه.

طبيبُ أطفال، ولكن لا أحد يعرف أنطوان كما يعرفه هو. ولأنّه يتردّد عليه منذ ثلاثة وعشرين عاماً، صار بينهما نوعٌ من الألفة: فقد رفعا الكلفة من بينهما، وخرجا معاً من حينٍ إلى آخر لأنّهما يتقاسمان الشغف نفسها بسينما برادي القديمة الواقعة في جادة ستراسبورغ.

بدءاً من سنّ العشرين، بات من المزعج جداً أن يكون الراشد الوحيد الذي لا يرافقه طفل وهو ينتظر في قاعة الانتظار. كان الأطفال يحدّقون في أنطوان وينظر ذووهم إليه خلسةً من فوق مجلاتهم. عبثاً يجلس بجوار نساء وحيدات ليعطي الانطباع بأنّه برفقتهنّ، إذ سرعان ما ينكشف بأنّ ليس معه طفل. ولهذا كان يستعير في كلّ مرّة طفلَ جارته أو أيّ طفلٍ آخر حاضر. في ذلك اليوم، كان قد جرجر معه الطفلة كورالي، ابنة بوّاب

عمارته، الذي تردّد في أن يقدّم له ذريعةً للذهاب إلى الطبيب.

فتح إدغار باب قاعة الانتظار، وعلى وجهه كمّامة طبيبٍ جرّاح. أدخل أنطوان وكورالي إلى مكتبه. كانت الحجرة تشبه أيّ عيادة طبيب، بالشهادات المعلّقة على الجدران الصوفية اللون، ومكتبته العامرة بمجلدات ضخمة مغلّفة بإتقان بجلد بقرةٍ مزخرف بالذهب. وكأنّ اللوحة النحاسية الموجودة على المدخل لم تكن كافية، كانت العيادة تشيع كفاءةً مؤكّدة؛ فالألوان والأثاث توحي بالجدية والرصانة. وكان هذا الجوّ الاحتفالي يسيطر على كلّ مَنْ يدخل إليها ويجعله يشعر بسيادة الطبّ وقدرته الكلية فلا يملك خياراً سوى الخضوع له. حينما يراجع المرءُ طبيباً، يضطرّ للتخلّي عن أيّ سيادة على ذاته: إذ لا يعود يملك نفسه ويسلّم جسده وخلله الوظيفي لسحَرة علم الأمراض. إنّ هذا تشابه بين الزينة الرخيصة لأيّ عيادة طبية وبين لغز صومعة عرّافةٍ أو ناسكٍ لأمرٌ مدهش. إنّ عقلاً نقدياً وخبيثاً يمكنه أن يقارن بين هذين الإخراجين: وسط رائحة المواد الطبية ورائحة البخور فقط، نجد النيّة ذاتها والتأثير ذاته على نفسية المريض. ولكنّ عيادة إدغار كانت مختلفة بعض الشيء، إذ عُلِّقَت رسومات للأطفال على الجدران، وتناثرت خرابيش وألعاب ومعاجين زينة على الأرض وفوق المكتب. كان قد وضع على وصفاته الطبية صورة لشخصية باور رينجر حمراء اللون في إشارة إلى قوّته الرمزية كطبيب.

كانت النافذة مفتوحة وتفوح رائحة خفيفة لغاز مسيّلٍ للدموع

في الغرفة. وذلك ما فسّر وضع إدغار كمامةً واقية. بعد أن خلا الهواء من الغاز وأصبح صالحاً للاستنشاق، نزع إدغار الكمامة. ذكّره أنطوان برائحة الغاز في حين كشّرت كورالي وسدّت أنفها.

- حاول صبيٌّ في العاشرة من عمره ومضطرب بعض الشيء أن يسرق وصفاتي الطبية.

سأل أنطوان حانقاً:

- ولهذا أطلقت عليه الغاز المسيّل للدموع؟

ردّ إدغار رافعاً يديه نحو السماء:

- كان يحمل سلاح نونشاكو(*). سلاح نونشاكو، يا أنطوان!

- يا إلهي، هل يحدث هذا لك كثيراً؟

- كلا، لحسن الحظّ.

ثمّ قال إدغار بعد أن جلس خلف مكتبه:

- صباح الخير يا كورالي. هل المعاينة لكِ أم لأنطوان؟

ردّت كورالي بنبرة عاتبة:

- بل له. وهو في هذا السنّ، أنا مرغمة على مصاحبته إلى الطبيب!

قال أنطوان:

- ولكنني أدفع لكِ أجراً رفيعاً يا كورالي.

(*) سلاح ياباني مؤلف من عَصَوَيْن يُربَط طرفاهما بسلسلة أو حبل. (المترجم)

- رغيفان بالشوكولا و**الأوّل**... يجب أن أرفَع أسعاري. ففي النهاية، لا بدّ أن يصيب التضخّم المالي أيضاً العلاقات الإنسانية.

- كورالي، هل والدتكِ تدعكِ تقرئين الصفحات المالية للصحف؟ هذا لا يُصدّق.

- يجب أن تعتاد، هذا هو الجيل الجديد. إذاً يا أنطوان، ما بك؟

بعد أن نبَشَ بين خليطٍ من الكتب والصحف والأوراق المتنوعة، أخرج أنطوان من حقيبته صورة تخطيطية لدماغٍ بشريٍّ مقطّع ووضعها على الطاولة. أمسك بقلم إدغار من ماركة **مونبلان** وحدّد مناطق من الدماغ.

- الوظائف الإدراكية العلوية تؤمّنها قشرة الدماغ، هل اتّفقنا؟

- نعم... ماذا اخترعت أيضاً؟ إلى أين تريد أن تصل؟ هل قرّرت أن تصبح جرّاحاً للأعصاب؟

تابع أنطوان وهو يحيط المناطق المعنية بدوائر:

- والفصوص الجبهية تؤمّن الاتصال بين تراكيب الأنا والوظائف الإدراكية...

- ممتاز يا أنطوان. أنا طبيب، لم تعلّمني شيئاً. أنا أعرف كلّ هذا.

تابع أنطوان شرحه على المخطّط:

- حسناً، كنتُ أقول في نفسي لو أنّك تستطيع أن تستأصل

جزءاً من قشرتي المخيّة أو، إن تفضّل ذلك، تستأصل الفصّ الجبهي، هكذا...

نظر إدغار إلى أنطوان وهو يخربش على الأجزاء التي ينبغي استئصالها من دماغه، حائراً. قطّب حاجبيه وهو يحدّق في صديقه وزبونه. كانت كورالي تقرأ مجلّتها على أريكة.

نهض إدغار من مقعده فجأةً، قائلاً:

- عمّا تتحدّث، بحقّ الرب؟ لا أفهمك. لقد فقدتَ توازنك، هل أصبحت غبياً تماماً، أم ماذا؟

ردّ أنطوان بغاية الجدية:

- يا حبّذا، هذا كلّ ما أصبو إليه. أنا...

قاطعه إدغار، مذعوراً:

- أتريد أن أُجري لك جراحة في فصوص المخ الجبهية؟

- في الواقع، أعتقد أن نصف جراحة قد تكون كافية: فأنا ما زلت أرغب في أن أكون قادراً على إشعال عود ثقاب وفتح ثلاجتي، ولذلك فلنتجنّب تكرار تجربة فيلم **تحليقٌ فوق عش الوقواق**(*)... في النهاية، أنت الطبيب، قم بما تعتقد أنّه الأفضل.

- الأفضل هو أن تُحتَجَز في مستشفى للمجانين، ماذا دهاك؟

- لا، لا، الأمر ليس كما تعتقده... أطلب منك هذا وأنا

(*) فيلم أمريكي أخرجه ميلوس فورمان عام 1975. (المترجم)

في كامل قواي العقلية. سأحرّر لك إعفاءً من المسؤولية. لقد فكّرتُ في الأمر كثيراً. اتّخذت هذا القرار بكامل وعيي. لم يكن هذا خياري الأوّل، سأخبرك الآن، لقد سبق وحاولتُ أن أصبح سكيراً وأن أنتحر ولكنني لم أنجح في ذلك.

- أردتَ أن تنتحر؟

- إنّها كارثة. دعنا من ذلك.

جال إدغار حول المكتب وجلس بجانب أنطوان. وضع يده على كتفه مبدياً عنايته بزبونه الأكثر ألفة وقرباً. سأله قلقاً:

- هل أنت محبَط؟ هل هناك ما يزعجك؟

- كلّ شيء يزعجني يا إدغار. ولكن لا تقلق، أنا أبحث عن حلّ. ويبدو لي أنّ أفضل حلّ هو أن أصبح غبياً.

- ماذا؟

- هل يمكنكَ أن تسدي لي خدمةً؟ صِفْ لي. إنْ كان عليك أن تتحدّث عنّي لشخصٍ ما، ماذا ستقول؟

- لا أدري... سأقول أنّك نابه، ذكي، مثقّف، فضولي بمعنيي العبارة، جذّاب، طريف، شارد، غامض بعض الشيء، قلق...

بقدر ما سرد طبيب الأطفال الصفات التي تميّز صديقه، امتقع وجه أنطوان وكأنّه يستمع إلى قائمة لأمراض خطيرة يعاني منها.

- أنت تبالغ في إطرائك لي، ولكنّ حياتي جحيم. أعرف

حشداً من الأغبياء، الجهلاء، المجبولين من اليقينيات والأحكام المسبَقة، حمقى تماماً، وهم سعداء! أمّا أنا، فسأصاب بقرحة، وقد ابيضّ بعض شعري... لم أعد أرغب في العيش بهذه الطريقة، لم يعد بوسعي. بعد دراسة دقيقة لحالتي، استنتجت أنّ عدم اندماجي الاجتماعي ناتجٌ من ذكائي الحادّ. فهو لا يدعني في هدوء، لا أسيطر عليه، إنّه يحوّلني إلى عزبةٍ مسكونةٍ بالأرواح كئيبة وخطيرة ومقلقة وممسكة بتلابيب روحي الأليمة. أنا أخجل من نفسي.

- حتى وإن كان ذكاؤك هو سبب مشكلتك، لا أستطيع أن أقوم بما تطلبه مني. كطبيب، لا يمكنني فعل ذلك، لأنّه منافٍ للأخلاق. وكصديق، لا أرغب في القيام بذلك.

- لم أعد أستطيع أن أفكّر في الأمر، يا إدغار، عليك أن تساعدني. يركض دماغي وكأنّه في سباق الماراتون ليلاً ونهاراً، لا يتوقّف عن الدوران وكأنّه في عجلة قُدّاد (هَمستر).

- أنا آسف، لا أستطيع. أنا لا أفهمك: أنت خارق ومتميّز، ولكنك لا تعرف قيمة حظّك. يجب أن تتعلّم العيش كما أنت. لبعض الوقت، الوقت الذي تحتاجه لتتعافى وتستعيد تفوّقك، سنجد حلاً إنقاذياً لتحسين حياتك.

- تحسين حياتي هو أن أكون غبياً.

- هذا غباءٌ.

- إذاً، أنا أسير في الطريق الصحيح. ألا يمكن استئصال

جزءٍ من خلاياي العصبية؟ هناك بنوكٌ للأعضاء البشرية وبنوكٌ للدم وبنوكٌ للمني، ولا بدّ أن تكون هناك بنوكٌ للخلايا العصبية، أليس كذلك؟ بهذا، يمكن لمن يملكون فائضاً من الخلايا العصبية أن يتبرّعوا بها لمن يعانون من نقصٍ فيها. فضلاً عن ذلك، سيكون هذا عملاً إنسانياً.

- كلا، ليس هناك بنكٌ للخلايا العصبية، يا أنطوان. أنا آسف.

- ماذا يمكنني أن أفعل إذاً، يا إدغار؟ ماذا سيحلّ بي؟ لماذا أنا مختَلف؟ أريد أن أعيش ابتذال الحياة، أريد أن أكون كغيري من الناس، أن أكون نملةً بين النمل.

كان أنطوان، وهو يتكلّم، يخربش على مخطّط الدماغ المقطّع؛ رسم نملاً حول كامل الصورة، ورسم نملةً ضخمةً افترض أنّها تشبهه.

- أتتذكّر الكتاب الذي أهديتني إياه بمناسبة عيد ميلادي العاشر؟

- السيّد بادابوم؟

- نعم، السيّد بادابوم. في مغامراته، لم يحصل له سوى المصائب: حينما يخرج، تُمطر، يصطدم رأسه بكلّ مكان، ينسى كل لوازمه، يفوّت دائماً حافلته... لماذا؟ لأنّه السيد بادابوم! إدغار، لدي إحساسٌ بأنني أُصبِح السيّد بادابوم... السيّد بادابوم، هو أنا!

سالت دموعٌ على خدّي أنطوان. ضمّه إدغار بين ذراعيه وربّت على كتفيه، الأمر الذي أدّى إلى أن يستغرق في نوبة طويلة من السعال. أخرج إدغار شراباً من درجٍ؛ وقدّم لأنطوان ملعقتين منه، ثمّ قدّم له قطعة بسكويت مغطّسة بالشوكولا من ماركة **تويكس**.

التهم أنطوان قطعة البسكويت بنهم، وقد نشفت عيناه واستعاد تدريجياً هدوءه.

- هل فكّرت بمراجعة طبيبٍ نفساني؟

قال أنطوان بإعياء، رافعاً يديه:

- لقد راجعتُ طبيباً نفسانياً.

- وماذا قال؟

- رأى أنّ كلّ هذا أمرٌ طبيعي: فأنا لا أعاني من مرضٍ نفسي، ولا من... هل تعلم ماذا قال لي؟ «استمتع بالحياة، يا فتى، استرح، كفّ عن الجنون». أيّ مدرسة لعلم النفس ارتاد ليقول هذا؟ **مدرسة** العلّة التومجونزية؟

- حسناً، ما يمكنني تقديمه لك، هو أن أعطيك أوروزاك. أنا ضدّ هذا النوع من الأدوية عموماً، ولكنّ محاولاتك في الانتحار وفي أن تصبح سكيراً، وحالتك، تقودني إلى أن أتّبع هذه الوسيلة. ولكن هذا لا يحلّ شيئاً ولا يُعالج.

- أنا أريد.فقط أن أقلّل من التفكير، يا إدغار.

- الأوروزاك له تأثير مهدّئ ومضاد للكآبة. وهذا كلّ ما

يلزمك. هذا لا يعدم المخاطر، ولذلك سوف تراجعني كلّ شهر لأجدّد لك العلاج أو أوقفه.

- لا يعدم المخاطر؟ كيف ذلك؟

- التأثيرات الجانبية المعتادة للأدوية: جفاف في الفم، غثيان، إرهاق... وخاصّةً، إدمانٌ خفيف. عليك من كلّ بد أن تقرأ طريقة الاستخدام وتتقيّد بالمقادير.

سأل أنطوان، مفعماً بالأمل:

- بهذا سأصبح أقلّ تفكيراً؟

- ستتحوّل تقريباً إلى شبح، أضمن لك ذلك. ستبدو لك الحياة أكثر بساطة، وأكثر جمالاً. الأمر الذي سيكون زائفاً بالطبع ولكنّك لن تُدرك ذلك. يجب أن تعلم أنّ هذا سيكون مؤقّتاً.

أكّد أنطوان:

- هذا ممتاز، في النهاية، أنت محقّ، ليس هناك ما هو نهائي. لقد استسلمتُ بعض الشيء. أرى هذا كعوّامة إنقاذ، أنت تعلم، هذا سيساعدني لبعض الوقت، ومن ثمّ سأتمكّن من تدبّر أمري بنفسي.

تحدّثا لدقائق إضافية عن عائلتيهما المحترمتين وعن أصدقائهما وعن السينما. كان لدى أنطوان غالباً أسئلة ليطرحها على إدغار، أسئلة يعتبرها من كفاءته الطبية: لماذا تسبّب المشروبات الغازية التجشّؤ، لماذا تنمو الأظافر، لماذا نعطس،

لماذا نحوزق، لماذا، عندما نصرّ طبشورة على اللوح أو شوكةً على صحن، يكون الأمر مزعجاً. بعد أن كُتِبَت الوصفة، تصافح إدغار وأنطوان بحرارة.

كالعادة، أراد أنطوان أن يدفع أجرة المعاينة، وكالعادة، رفض إدغار ذلك. غادر أنطوان وكورالي العيادة.

كانت شقّته تقع في الدور الثامن من عمارة قديمة في مونتروي. في المدرسة الإعدادية والثانوية، تعرّض أنطوان لإذلالٍ منظّم - مع زملاء آخرين مثله لم تكن بنيتهم الجسمانية مناسبة للأنشطة البدنية - باختياره دائماً في ذيل قائمة لاعبي فرق كرة القدم وكرة الطائرة. واضطرّ لأن يتحمّل توبيخات وتهكّم زملائه الذين اعتبروا أنّ لا علاقة لدروس التربية البدنية بالتعليم وإنّما بالمنافسة الرياضية. كما أنّ أنطوان لم ينمِّ هوايته في الرياضة. ولكنّ تعرّضه لتلك التجربة السلبية وعدم ممارسته للرياضة كان يزعجه، فقرّر أن يستأجر شقّة في دورٍ عالٍ، الأمر الذي سيرغمه على أن يمرّن عضلاته. ولكن سرعان ما تبيّن أن ذلك أمرٌ متعِب من الناحية العملية. كان جاره في الدور السابع فلاد بطلاً في المصارعة الحرّة، لطيفاً جداً. ولأنّه مضطرٌّ لأن يتدرّب باستمرار ويرفع أثقالاً ويقوم بالتمرينات العضلية، اقترح على أنطوان أن يحمله إلى بيته. وهكذا حاول أنطوان دائماً أن يصل في توقيت فلاد نفسه إلى أسفل الدرج لكي يحمله على كتفه حتى الدور السابع. كان فلاد يقول أنّه لا يزن أكثر من منشفة

الحمّام التي يتنشّف بها . . . كان طول فلاد مائة وثمانين سنتمتراً ووزنه حوالي مائة وعشرين كيلوغراماً؛ وكان قوياً جداً بحيث أنّه نسي ذات مرّة أنطوان على كتفه وعاد إلى بيته ليبدأ بإعداد طعام عشائه.

لم تكن شقّة أنطوان مجهّزة جيّداً، بل وكان الكثير من تجهيزاتها معطّلة؛ فالمكيفات والعزل والتمديدات الصحية والكهرباء لم تكن تعمل بشكلٍ سليم. ومع ذلك، فاقت أجرتها موارده.

في البداية، استطاع أن يسدّد الأجرة بفضل إعانة السكن المخصّصة للطلاب وبفضل قيامه بترجمة رواية **البحث عن الزمن الضائع** إلى اللغة الآرامية. ولكن منذ أن توقّف المشروع في أعقاب الإفلاس المباغت للناشر، انخفضت موارد أنطوان إلى أدنى مستوياتها. أمام احتضار محفظته، تخيّل مستشفى مالياً يستطيع المرء أن يحقن فيه الحسابات المصرفية الزهيدة. تحدّث أنطوان في الأمر مع الموظّف الذي يتعامل معه في المصرف، ولكنّ هذا الأخير اعتبر المصرف عيادة خاصّة.

أقام أنطوان، بحثاً عن تصنيفٍ بشري، سلّماً عامّاً يحدّد درجة الثراء انطلاقاً من عيار الجورب. الفئة الأولى، الأكثر فقراً، تضم مَنْ ليس لديهم جوارب؛ الفئة الثانية، المتوسطة الفقر، وتضم مَنْ لديهم جوارب مثقوبة؛ الفئة الثالثة، الأكثر ثراءً، وتضم مَنْ لا ثقوب في جواربهم. كان أنطوان ينتمي إلى الفئة الثانية. فقد تكوّنت موارده بشكلٍ رئيس من عمله كمحاضر

في جامعة باريس الخامسة والذي يدرّ عليه، بحسب الأشهر، من ألف إلى ألفي فرنك فرنسي. يُضاف إلى ذلك نقود .R.M.I التي حصل عليها بشكلٍ غير شرعي بسبب التباسٍ في اسمه: فقد كان اسم أنطوان في الوثائق الجامعية آراكان، بينما كان مسجّلاً في وثائق .A.S.S.E.D.I.C باسمه الميانماري ساولو، الذي لم يستخدمه قط في حياته اليومية. فضلاً عن ذلك، قام من حينٍ إلى حين بأعمال في الخفاء. فقد قلّد صرخات قطيعٍ من الزرافات في فيلمٍ وثائقيٍّ حول الحيوانات فُقِدَت أشرطته التسجيلية. أرسل له والداه، من بريتانيا، القليل من المال وطروداً من الطعام. خليطٌ عجيب ولذيذ من الأطباق الخاصّة الآسيوية والبريتونية. تلقّى شهرياً ثلاّجة ثقيلة تحتوي على سمكٍ ومحار، ولفائف ربيعية من نبات الحُرْض، ومعجنات رافيولي بالقواقع، وحلوى مغربية بمرق السمك، مقمّرة، محشوة بالرز المحمّص... كما ساعده صديقه غانجا وكان ليساعده أكثر لو لم يرفض أنطوان التدخّل في شؤونه.

عاش أنطوان شهرياً بمبلغٍ زهيدٍ من .S.M.I.C رغم ذلك، ظلّ في شقّته. كيف؟ لم يعد يدفع الأجرة. لماذا؟ لأنّ المالك، السيد برالير، أُصيب بداء ألزهايمر.

لم يكن أنطوان متأكّداً تماماً من أنّ مرضه كان ألزهايمر. المهمّ أنّ السيد برالير لم يعد يتذكّر شيئاً. في بداية شهر أيلول/ سبتمبر، كان على أنطوان أن يرافقه إلى المستشفى لإجراء فحوصات إضافية. لم تكن للسيّد برالير عائلة، ولذلك اعتنى

أنطوان به. وقد اكتشف صدفةً فقدانه للذاكرة. لم يستطع أنطوان أن يدفع له الأجرة شهرياً، فكان يتهرّب منه ويحاول قدر المستطاع أن يتحاشاه. ومع ذلك، التقطه السيّد براليير ذات يوم. توقّع أنطوان أن يأمره بضبّ عفشه. لكن براليير حدّق فيه ساهياً وأمسك بذراعه مغمغماً:

- هل تسكن هنا؟

- نعم يا سيّد. في الدور الثامن. أنا متأسّف، هذا الشهر، لدي مصاعب... لقد نسيتُ...

سأله بسذاجة واندهاش:

- هل نسيت شيئاً؟

في العادة، كان السيد براليير يفرض دفع الأجرة في بداية الشهر؛ في تمام الساعة السابعة صباحاً؛ ينبغي أن يُمرّر ظرف المال من تحت بابه. كان يكفي أنطوان أن يتأخّر لبضع ساعات ليدقّ السيد براليير على باب شقته ويهدّده بالمحضرين العدليين.

أجاب أنطوان، متعرّقاً:

- آه، كلا. نسيتُ أن ألقي عليك التحية. صباح الخير...

غمغم:

- صباح الخير. أتسكن في العمارة؟

- نعم يا سيّد. في الدور الثامن.

انتابت أنطوان حالة شعورية حسّاسة. كان يمكنه أن يدع مرضه يستمرّ وبذلك يستمر بالعيش في شقّته. أو أن يهتمّ بهذا المالك المشاكس والفظّ والعديم الشفقة. تغلّبت عليه طيبته

الفطرية. حزِن أنطوان لأنه اضطرّ لتنمية أنانيته ولاأخلاقيته لكي يحيا في هذا العالم.

اصطحبه إلى الطبيب الذي تحفّظ في تشخيصه: سيلزمنا بعض الوقت ومجموعة من الفحوصات لكي نحدّد بدقّة مرض السيد براليِر.

- وهل لديه فرص للشفاء؟

أجاب الطبيب:

- يصعب قول هذا. ذاكرته مهترئة. يجب أن تعتني به. إنّه سليم العقل ولكنّه لا يستطيع أن يحتفظ بأثر الماضي القريب. اهتمّ به أنطوان كعمٍّ عجوز. فيقوده إلى شقّته حينما يتوه في الممرات؛ كما رسم له خارطة مع عنوانه ودسّها في محفظته، تحسّباً لضياعه في المدينة. يشتري له حاجاته ويُجبي الأموال من بقية المستأجرين ويضعه في الحساب المصرفي للعجوز. كان للسيّد براليِر أيضاً لحظات من الصفاء الذهني يتذكّر فيها بعض الأشياء، ومنها في الخصوص أنّ أنطوان لم يعد يدفع أجرته؛ ولكن ذلك لم يكن يطول. وقد قرأ أنطوان مقالة في صحيفة لوموند حول تقدّم الأبحاث الطبية الخاصّة بأمراض تلف الدماغ: باركنسون، ألزهايمر... كان، في الوقت ذاته، فرحاً لأجل السيد براليِر وقلقاً لفكرة أن هذا التقدّم العلمي ربّما يؤدّي إلى طرده من الشقّة. لا يدرك العلماء سوى النتائج الطبية لاكتشافاتهم: إذا ما نجحوا في النهاية في شفاء مرض مالك شقته، لن يستطيع أنطوان الاعتماد على عرفانه بالجميل: في

دفاتر حساباته، سيرى العجوز أسماء كلّ المستأجرين الذين لم يدفعوا الأجرة، ولكنّه لن يتذكّر أيّ شيء عن المساعدة التي قدّمها له أنطوان.

في اليوم التالي لمراجعته عيادة إدغار، الخميس 25 تموز/ يوليو، بدأ أنطوان بتناول الدواء الذي كان عليه أن يؤمّن له حماية من عقله، الأوروزاك. كانت الجرعة عبارة عن قرصٍ واحدٍ في اليوم. بادر أنطوان إلى مضاعفة الجرعة. أمِلَ في تأثير ملموسٍ وسريع، لا في بلسمٍ ذي تأثيرٍ سطحي. وسيُشعَر بتأثير الدواء بعد بضعة أيام، أي تماماً في الوقت اللازم لإعداد حياته الجديدة بكلّ ما أوتي من سذاجة.

في المرحلة الأولى، أرسل رسالة استقالة من جامعة باريس الخامسة، رينيه ديكارت. على مدى عامين، كان يُلقي محاضرة أسبوعية من ساعة ونصف حول L’Apocoloquintose du divin Claude (أي «الانمساخ إلى يقطينة»)، وهو نصٌّ مسرحي هجائي للكاتب سينيك. فضلاً عن ذلك، كان يقوم من حين إلى آخر بإعطاء مواد أخرى يمتلك معارف راسخة حولها: علم الأحياء، حرشفيات الأجنحة، علم البلاغة الآرامية، السينما. كانت معارفه التخصصية كافية في الكثير من المسائل لأن يحلّ في الحال محلّ أستاذٍ مريض، ولكنّها ظلّت جزئية وعاجزة لأن تمنحه السيطرة الفعلية على مادة جامعية والأمل في منصب جامعي.

في المرحلة الثانية، تخلّص من كل ما قد يجازف بتنشيط

عقله. وضع كتبه في صناديق ورقية، المئات من الروايات والأعمال الفكرية والقواميس والموسوعات، أسطواناته، كيلوغرامات من المحاضرات، والمعارف والمجلات العلمية والتاريخية والأدبية... نزع من جدران غرفته الفريدة إعلانات السينما، وصور أبطاله ولوحات رامبرانت وشييل وإدوارد هوبر وميازاكي. ساعده آس وشارلوت وفلاد وغانجا في نقل الصناديق إلى بيت رودولف، الذي أفرحه، مؤقتاً على حدّ قول أنطوان، الحصول على تلك الكنوز الثقافية.

في المرحلة الثالثة، وقد فرغت شقته، تساءل أنطوان كيف استطاع أن يكدّس كل هذا في مكانٍ ضيّق جداً. وكان المطلوب الآن إملاء المكان بأشياء مسالمة ستدع عقله بسلام. بعد قيامه بزيارات إلى بعض جيرانه الذين يقدّر دفاعاتهم الحصينة ضدّ الذكاء الممتاز، كتب ما سيشكّل ديكوراً ممتازاً لحياته الجديدة. بدا له زوجان من الجيران، هما الأستاذ آلان، والصحافية إيزابيل، حالة مثالية لحياة كاملة مكرّسة للعدول عن الذكاء. كان يراقبهما منذ زمنٍ طويل، وكان، في أعماق قلبه، معجباً بهما: كانا منخرطين في الحياة بلا تحفّظ، ويملكان تماماً مزايا حماقةٍ متميّزة، غباءٌ محض، مفعم بالبراءة، سعيد وناجز، غباءٌ مريحٌ لهما وللمحيطين بهما، لا يحفّ بالشرّ أو بالخطر. نصحه آلان وإيزابيل، باهتمامٍ جدّي، أن يملأ شقّته. جلب تلفازاً قديماً ووضعه في منتصف غرفته كرمزٍ طاغٍ لقراره. علّق على جدرانه صور *Roi Lion*، وسيارات قديمة وشابّات مكتنزات، وصور

ممثلات وممثلين بدوا معنيين بالعبقريات الشاملة وصور شخصيات مثقّفة خالدة مثل آلان مينك وآلان فينكيلكروت. في البداية صدمه الأمر، وشعر بأنّه في حالٍ سيئة وسط هذه البيئة العقيمة. اطمأنّ قائلاً في نفسه بأنّ بفضل كيمياء الأوروزاك، سيبدو له كلّ شيء رائعاً عمّا قريب. نصحه آلان وإيزابيل بأسطوانات مسالمة لهدوئه وموسيقى معاصرة قائمة على ضربات مطارق إلكترونية على بيانوهات مشدودة، وألبومات للفلكلور العالمي.

أخيراً بدا له أنّ شقّته هو المكان الأسلم لدماغه السائر على طريق الترهّل. ومع ذلك أدرك أنطوان أنّه حتى وإن كان العالم الخارجي يتبع الاتجاه نفسه، فهو لا يمكنه توقّع أن يستأصل كلياً المخاطر الثقافية والفكرية الضئيلة للمجتمع.

جمع أنطوان شارلوت وغانجا وآس ورودولف في الديكور الجديد لشقّته على وجبة آيسلندية. كانت الطاولة مغطّاة بملذّات شمالية: شاي بالزبدة، راحة الحلقوم بلحم البطريق، فطائر شحم الفقمة بالأعشاب المخلّلة... جدّد أنطوان تأكيده على قراره بأن يكون غبياً، على الأقلّ لبعض الوقت، في محاولة لتحجيم وعيه المركّز للغاية. وإذ اعتبروا هذا المشروع على أنّه الأقلّ ضرراً، عبّروا له عن دعمهم على مضض. دعاهم أنطوان إلى عدم إثارته بالنقاشات حول مسائل كبيرة، وإنّما بالثرثرة حول أحوال الطقس وأمور تافهة وسطحية أهملها حتى الآن.

قال له غانجا:

- هل أتصوّر إذاً بأنّ مبارياتنا في الشطرنج شيءٌ من الماضي؟

- الآن، نعم. ولكنني أقترح عليك استبدالها بمباريات في لعبة أخرى اكتشفها لي جيراني. تُدعى لعبة مونوبولي. هدف هذه اللعبة بسيط: يجب أن تكسب المال، وتكون ماهراً، وتتصرّف كرأسمالي أحمق. هذا مذهل. إحدى فضائل هذه اللعبة هي أنّها قد تعلّمني، بل وربّما تهديني إلى الأخلاق الليبرالية. سوف أنضمّ إلى ما أُدينه اليوم، كمجرّد لعبة، دون أن أبالي بالعواقب وبالأجور السكنية المرتفعة جداً التي تضع الكثير من الأُسَر في الشارع. سوف أصبح بخيلاً دنيئاً، أنانياً، لا همّ لي سوى المال، لا همّ لي ولا قضية وجودية كبرى سوى طريقة كسب أكثر ما يمكن منه.

أبدت شارلوت ملاحظة:

- إذاً أنت تجازف بأن تصبح مغفّلاً حقيقياً.

- أن أكون مغفّلاً حقيقياً هو دواء مناسب لمرضي. أحتاجُ إلى معالجة جذرية: أن أكون مغفّلاً، سيكون المعالجة الكيماوية لذكائي. هذه مجازفة أقدم عليها دون تردّد. ولكن إن رأيتم، بعد ستّة أشهر، بأنني أتحوّل إلى أبلهٍ قذر، تدخّلوا. ليس هدفي أن أصبح غبياً وجشعاً، وإنّما أن أدع ذرّاتٍ تجري في أعضاء جسمي لكي أُطهّر عقلي المتألم جداً. ولكن لا تتدخّلوا قبل ستة أشهر.

وبسونيتة(*) رائعة، قال آس لأنطوان بأنّه يجازف بفقدان شخصيته وبأن يتلوّث بهذه السموم التي سيتجرّعها.

- هذه أيضاً مجازفة. فأن تكون غبياً يجلب من المسرّة أكثر بكثير من العيش تحت نير الذكاء. فبالغباء نكون أكثر سعادة، هذا مؤكّد. لن أضطرّ للاحتفاظ بمعنى الحماقة، وإنّما بالعناصر الخيّرة السابحة فيها كعناصر ضرورية: السعادة هي، لفترة ما، قدرة على تجاهل معاناة الآخرين، راحة للحياة وللعقل. شيءٌ من اللامبالاة!

تدخّل رودولف:

- أنا أفهمك. أنا أسمّي هذا نظرية القرش. مثل الكورار(**) أو الفطور السامّة، للقرش خطرٌ قاتل، ومع ذلك، نجد في أنسجته مركّبات كيماوية ستُستخدَم في صناعة أدوية لمعالجة سرطانات وإنقاذ أرواح. في النهاية، حينما تصبح غبياً، تستطيع أن تُظهِرَ، لمرّة واحدة، ذكاءً مدهشاً. هل تعتبرني خادعاً؟

تابعت شارلوت:

- هذا أيضاً مبدأ اللقاح. ربّما ستنجح في الاعتناء بنفسك وتحصين ذاتك.

(*) قصيدة من 14 بيتاً. (المترجم)

(**) مادة سامّة كانت تُستخدَم في تسميم رؤوس السهام لتكون قاتلة. (المترجم)

قال أنطوان ممرّراً يده على رقبته ومبتسماً وهو في غاية القلق:

- إن لم أمت.

قالت شارلوت:

- أو إن لم تصبح غبياً بشكلٍ نهائيّ. الأمر الذي سيكون أسوأ من الموت.

في سذاجته اليائسة، تصوّر أنطوان الغباء على أنّه العالم اللامتناهي الذي قد يقدّم لحياته فضاءً متحرّراً من كلّ مقاومة للجوّ: سيعوم بين النجوم والكواكب بحسب مسار نوعه.

كانت المشكلة الأكبر بالنسبة إلى أنطوان هي اكتشاف المناجم المدهشة التي قد تضمّ، بين الصخور والمعادن الشائبة، دُرر الغباء. سيكون من السهل الإشارة بالبنان إلى بعض الأغبياء، إلى الحماقة العامّة والمحيطة، ولكن الأمر لا يتعدّى كونه في معظم الوقت تمويهاً لحكمٍ تقويمي. لو قلنا أنّ كرة القدم والألعاب التلفزيونية ووسائل الإعلام غبية من حيث الجوهر، سيكون الأمر بسيطاً. ولكن، بالنسبة إلى أنطوان، كان واضحاً أنّ الغباء يكمن في طريقة صنع الأشياء أو النظر إليها أكثر مما يكمن في الأشياء بذاتها. في الوقت ذاته، كان امتلاك الأحكام المسبقة غباءً، كما وجد أنطوان أنّ ذلك بداية مناسبة لحياته الجديدة.

بدأ الأوروزاك يفعل فعله. بات أنطوان أكثر ارتخاءً، وغادرته الشكوك والقلق. أحالت الكيمياء الجارية في دماغه وجهازه العصبي رصاص الواقع إلى مسحوقٍ مضيءٍ مذهّبٍ وملوّن.

في السابق، ما نغص حياته هو كلّ الأسئلة والمبادئ التي

تتشابك في عقله. على سبيل المثال، كان يتحقّق من مصدر كلّ الألبسة التي يشتريها لكي لا يساهم في استغلال الأطفال العاملين في المصانع الآسيوية لشركة **نايك** وسواها من الشركات المتعددة الجنسيات. ولأنّ الإعلان كان اعتداءً على الحرية، انقلاباً على المستهلك، وعلى خياله وعلى لا شعوره، فقد أعدّ دفتراً بأسماء كلّ الماركات وكلّ المنتوجات التي ساهمت في هذه الحرب النفسية واستبعدها من سلّة احتياجاته. كما أعدّ لائحةً بكلّ الشركات التي تستثمر في أنشطة مدانة أخلاقياً، أو ملوِّثة، أو في البلدان غير الديمقراطية أو التي تسرّح العاملين حينما ترتفع أرباحها. كما لم يكن يشتري طعاماً كيميائياً ولا أغذية تحتوي على مواد حافظة أو ملوّنات أو مضادات الأكسدة حينما تسمح له موارده المالية بذلك. كان يفضّل شراء منتوجات الزراعة البيولوجية. ليس لكونه بيولوجياً ونصيراً للسلام وأممياً، بل ببساطة فعل ما يمليه عليه ضميره؛ كان سلوكه في الحياة ثمرة أفكارٍ أخلاقية، أكثر منها قناعات سياسية. وفي هذا، كان لأنطوان بعض ملامح شهيدٍ للمجتمع الاستهلاكي. كما رأى جيّداً كم يقترب سلوكه المتشدّد من تنسّكٍ مسيحي. وبعث ذلك فيه الحيرة لكونه ملحداً، ولكن لم يكن بوسعه إلاّ أن يتصرّف كمسيحٍ علماني وكافر. كان أنطوان، وهو يحاول ألا يخفي شيئاً عن نفسه، يقول في نفسه بأنّ هذا التشدّد الأليم، بل المعذّب للذات، هو طريقته في التعبير عن إثمه كذكرٍ وكغربيٍّ - مستغلٌّ للعالم الثالث. كأيّ رجل دين زاهد، كانت له مبادئ صارمة

بعض الشيء: رفض الوقوع في فخّ التقنيات الجديدة التي ترغم المستهلكين على التزوّد دورياً بالمنتوجات من آخر طراز. كما رفض الأقراص الليزرية واكتفى، عن حقّ، بتقنية الأسطوانات التقليدية الممتازة ذات 33 دورة وبمدوّرته القديمة للأسطوانات.

إنّ للتمسّك بسلوك مستهلك مسؤول وإنساني ثمنٌ لسوء الحظّ. وقد دفعه أنطوان غالياً جداً. كانت نتيجة أخلاقه وشعوره الحادّ بالمسؤولية هي أنّه امتلك القليل من الألبسة وجاع في أغلب الأحيان. ولكنّه لم يشتك من ذلك أبداً. تحت شمس الأوروزاك الكيماوية، اكتشف أنطوان العالم. وقد رآه كما لم يره قط من قبل. في الماضي، كان كلّ الواقع من مناظر طبيعية وهواء وشوارع وناس، قد تأثّر بعنف الحروب والبطالة والأمراض والشقاء اليومي لمعظم البشر. لم يستطع الاستمتاع بالشمس من دون التفكير بهم، في أفريقيا، الذين كانت هذه العظمة الوهّاجة مرادفة بالنسبة لهم للمزروعات المحروقة وللمجاعة. لم يستطع الابتهاج بالمطر، لأنّه عرف حجم القتل والدمار الذي تخلّفه الأعاصير في آسيا. رسم فيض السيارات في ذهنه الحسّاس جداً صورَ الآلاف من القتلى والجرحى على الطرقات. كانت عناوين الصحف بلائحتها الطويلة من الكوارث والقتلى والمظالم هي التي تعطي لون سمائه وحرارة نهاره ونوعية الهواء الذي يستنشقه.

منذ أن بدأ بتناول أقراصه الحمراء الصغيرة، بُني سدٌّ محكَم بين العالم وعواقبه الوخيمة. ليس لأنّه سخِر من مصير الأجناس

المهدّدة أو لأنّه لم يعد يتأثّر ببؤس العالم، والاعتداءات والحروب والتفاوت الاجتماعي الذي كان بنفسه ضحية له، بل لأنّه أصبح واقعياً. رأى أن الفقر والعنف بأنواعه مسائل مؤسفة، إنّها فعلاً فظيعة ولكن ماذا بوسعه أن يفعل حيالها؟ لم تكن لديه وسائل تغيير شيء، فردياً. حلّ نوعٌ من التعاطف الوجداني محلّ تضامنه مع الآخرين.

تنزّه أنطوان مستمتعاً بلذّة المشي والمشاهدة، ويحسّ بالمتعة المؤثّرة النابعة من تأكّدنا بأن قلبنا ينبض وبأننا نتنفّس. استلذّ بهواء صباح حديقة مونتروي، مغمضاً عينيه على واقع العالم، ومستمتعاً بمنظر طيور أبو الحنّاء دون أن يخطر بذهنه مصيرها المحتوم بسبب التلوّث. استمتع بمنظر الفتيات المرتديات للزيّ الصيفي دون أن يتساءل إن كانت هناك كتبٌ في حقائبهن، وأعطى الأولوية للعالم، دون أن يبحث بعيداً، مستمتعاً بملذّاته المجانية.

وليكون له سلوك شخص طبيعي في المجتمع، دعا أنطوان جيرانه لتناول العشاء ومشاهدة مباريات في رياضات مختلفة شجّع خلالها رجالاً يرتدون سراويل قصيرة. سعى، وهو الذي يبالغ في شكوكه، إلى إبداء أحكام محابية وإلى ازدراء الأشياء المفضّلة للآخرين. كان على وشك أن يستقرّ في حالة طبيعية حينما قرّر إجراء اختبارٍ رفيع قد يبرهن على نجاح اندماجه: الماكدونالدز. في الماضي، لم تراوده قط فكرة الدخول إلى كهف الرأسمالية الإمبريالية هذا، مموّن الشحوم والسكريات،

رمز توحيد أنماط الحياة. ولكنّه تغيّر كثيراً. اختار ماكدونالدز مونتروي، الذي يقع على مسافة بضع دقائق من منزله. خلال الفترة السابقة لوجوده في المطعم - أي قبل أربعة أشهر -، كان أنطوان يقول في نفسه بأنّه لو لم يُعارَض بقوّة لأراد أن يرمي فيه قنبلة ويفجّره، ولكنّه سرعان ما كان يردّ على نفسه ويقول بأنّ هناك طلبةٌ وعمالٌ مستغَلّون يعملون فيه ومن المجحف إيذاءهم والتسبّب في بطالتهم.

كان مبنى المطعم فسيحاً وعالياً وملوّناً وفيه إعلانات تدعو لتناول الطعام بخفّة وبسعرٍ زهيد. كان حرف M كبيراً أصفر اللون يزيّن جدار مطعم الوجبات السريعة. استقبله مهرّجٌ ظريف من البلاستيك أمام باب المدخل، رافعاً يده ومبتسماً ابتسامةً عفوية. دخل أنطوان وحيّا الحارسين الموجودين بالتأكيد لحماية الزبائن من هجمات عصابات الأشرار من لصوص البطاطا المقلية. وصل إلى طاولة الطلبات. قال للمرأة الشابّة التي استقبلته:

- مرحباً!

- ماذا تريد؟

ابتهج أنطوان لذلك الاقتصاد العقلاني: لم يعد من الضروري استخدام عبارات لباقة ميكانيكية. ولذلك سيتجنّبها. كان الأمر أكثر صدقاً ونزاهةً. نظر إلى قوائم الطعام.

أغراه الوعد بتناول وجبة «فاخرة» لقاء اثنين وثلاثين فرنكاً، إذ قرأ على اللوحة المضاءة:

- أفضل وجبة من ماكدودوليكس.

- مشروب؟

- نعم، طبعاً. ممتاز.

سألت المرأة الشابّة، وقد بدت متعبة بعض الشيء:

- أيّ مشروبٍ تريد؟

- كوكا، نعم، لنجرّب الكوكا.

استجابة لعادات وأعراف هذا الواقع الجديد، ردّ بتجنّب أيّ كلمة شكر. جلس إلى طاولة صوفية اللون وبدأ بتناول البطاطا المقلية مفرغاً ثلث عبوة السائل البنّي والبرّاق. بعينٍ فضولية، نظر إلى فرمة بطاطا مقلية ثمّ غمسها في مزيجٍ من الكتشاب والخردل والمايونيز والتهمها. لا بدّ أنّ أنطوان، منذ بضعة أيام، لا يستطيع الامتناع عن التفكير وهو يتناول فرمة بطاطا مقلية في الحكاية الدموية للبطاطا وبالقرابين البشرية التي قدّمتها حضارة الآزتك باسمها. لا بدّ أنّ تسبب هذه الدرنة البسيطة بالكثير من الضحايا سيكون قد منعه من الإعجاب بها تماماً. غرز الأخرق أسنانه في شطيرته فسقط جزءٌ من حشوتها اللزجة في الطبق. كان عليه أن يعترف بأنّه قد أحبّها. بالتأكيد لم تكن مفيدة للصحّة ولم تكن أغلفتها قابلة للتحلّل ولكنّها كانت بسيطة ورخيصة ومثيرة للدفء وذات نكهة شهيّة. أعطته النكهة شعوراً بإيجاد عائلة بلا حدود، بالانتماء إلى ملايين الأشخاص الذين يلتهمون في اللحظة نفسها شطيرة مماثلة. وكتصميمٍ عالمي، قام بحركات الشراء نفسها ونقل الطبق وشرب الكوكا وتناول البطاطا المقلية والشطيرة

التي يقوم بها سواه من الراقصين - المستهلكين في معابد مماثلة تماماً. أحسّ بشيءٍ من المتعة، من الثقة، من القوّة الجديدة في كونه مثل الآخرين ومع الآخرين. لم يكن أنطوان يهتمّ بمظهره قط. كانت ألبسته بالية ولكنّه لم يكن يمتلك لا المال ولا الرغبة في شراء ألبسة جديدة؛ فقد كان مخزنه المقدّس متجر غيريسولد للألبسة الرثّة في جادة روشيشوارت. أمّا «حلاقته» فكانت عبارة عن قصٍّ بمجزٍّ يقوم به غانجا كلّ شهرين مرّة. طلب من مزيّنٍ أن يقصّ شعره. في متجرٍ للألبسة، قلّد اختيارات شابٍّ تصرّف وكأنّه ذو ذوقٍ سليم، دون أن يبالي إن كانت الألبسة مصنوعة من قبل أطفال. اشترى زوج أحذية من ماركة نايك وسروال جينز من ماركة لوفيز وكنزة رياضية من ماركة أديداس. ستكون هذه ألبسته للاستجمام. ثمّ اقترف زيارة إلى غاليري لافاييت، وهي جريمة لم يكن ليتخيّلها إلى وقتٍ قريب. دخل إلى ذلك الفناء البرجوازي، العابق بشذى التفوّق الاجتماعي. بناءً على نصائح بائع لبق، اشترى بنطالاً من الكتّان وقميصاً وسترةً من طرازٍ أنيق «الآن أنت أنيقٌ للغاية، أؤكّد لك. . . ».

لإنهاء نهاره، لعب مباراة ألعاب فيديو في محلٍّ مختص. لم يختر لعبة تتطلّب ذكاءً لإيجاد مواضيع وفكّ ألغاز، كلاّ، بل اختار لعبة يقتل فيها وحوشاً قادمة من الفضاء الفلكي. أراحه ذلك، فقد أزال توتّر نهارٍ تمنّاه نموذجياً، بل واستلذّ بإبادة تلك المخلوقات؛ انهمك في المعركة وكأنّ مصير البشرية مرتبط فعلاً برشاقة رسغه ودقّة أصابعه. أصبح في النهاية بطلاً.

اتّصلت به شارلوت. كانت قد تلقّحت من جديد تلقيحاً اصطناعياً وأرادت أن يرافقها إلى حفلةٍ سوقية. تحدّثا عن كلّ شيء وكأنّ شيئاً لم يكن، عن الصيف الذي تأخّر هذه السنة وعن هذه الحكومة العاجزة وعن الحياة الجميلة جداً. في لحظة ما، أرادت أن تحدّثه عن انخراطها في الفريق المكلّف بترجمة كلّ أعمال كريستوفر مارلو. بعد دورتين في الهواء الطلق وسط السعادة الغامرة، تقيّأ أنطوان في الهواء. سقطت الحبّتان الحمراوان، اللتان لم تُهضما بعد، وسط بركةٍ من البطاطا المقلية والكتشاب. تمضمض ثمّ تناول حبّتين جديدتين. افترقا بغموض. وقف أنطوان أمام كشكٍ ونظر إلى أغلفة المجلات النسائية ومجلات المعلومات البسيطة الرجالية وإعلانات العطور ومواد التجميل الرجالية وصور الممثلين المثيرين، فأدرك أنّه لا يمثّل صورة الرجل المثالي. كان عددٌ من مجلّة *Elle* يحتوي على دراسة حول الصفات الرجولية التي تجذب المرأة وأُصيب بشيءٍ من خيبة الأمل حينما اكتشف أنّه لا يتّسم بأيٍّ منها. لو كان ذلك قبل فترة من الزمن، لسخِر من الأمر ورأى بأنّ هذا هو الحامل الطبيعي لأوهام الرجل وهلوساته وأنّ مزاياه أعمق من هذه الترّهات. ولكن تحت تأثير الحبّات الحمراء، شعر بالانتقاص لعدم إثارته رغبة مباشرة عند النساء. ولكي يتشابه مع فرسان الأحلام الموجودين على الورق الصقيل لأغلفة المجلات، انتسب إلى صالة كبيرة مضيئة ومعاصرة لكمال الأجسام، تتدلّى من سقفها نباتات غريبة جداً. تمنّى أن يكون على هيئة مناسبة

لأذواق العصر والحياة الجنسية. رفع، لساعة في اليوم، أثقالاً على ساقيه وذراعيه وكتفيه، وقام بسلسلة من الحركات الرتيبة. كان أنطوان، منهكاً، ينسى نفسه وسط الجهد؛ فالألم والعرق وموسيقى احتكاك المعادن وضربات الأثقال على الأجهزة أحالته إلى جهاز، إلى دولابٍ في تلك الصالة للآلات البشرية الغائصة بين الآلات الحديدية.

أقنعت جدّية زبائن الصالة الآخرين أنطوان بأهمية نشاطه. كانت الموسيقى المعذِّبة والمنوِّمة تعطي إيقاع ضربات الآلات لممارسي التمارين العضلية الشاقّة. لم يكن أحدٌ ينظر إلى نفسه صراحةً، كان نوعٌ من الخجل يطغى عليهم، الخجل من أنّ ليس لديهم جسمٌ جميل أصلاً ومن أنّهم مرغمون على اللجوء إلى هذه الجراحة التجميلية لأجسادهم. أصبح جسم أنطوان صقيلاً وصلباً؛ حلّت خطوط واضحة مكان الخطوط المترهّلة لجسمه القديم. ظهرت أشكالٌ وحدبات على بطنه. بات أكثر قوّة، وحتى إن لم يعرف كيف يستخدم هذه القوّة الجديدة، فقد كان سعيداً برؤية بروز صلابة جسده المترهل. أُعجِب بعضلاته النامية كعلاماتٍ على حالته السوية، كرموزٍ مرئية على مطابقته لنموذج حقيقيٍّ للجمال. كان قوياً وذو شخصية؛ أدرك كم كان فاقداً للشخصية حينما كان هزيلاً وضعيفاً. اندمج جسمه تماماً في اكتشاف العالم. أصبح له الآن رشاقة أسماك القرش نفسها في الماء، لم يعد يتعلّق به أيّ شيء؛ فقد جاء تحوّله الفيزيائي بعد تحوّله النفسي. لم يعد عقله وجسده معذّبان، وكأنّه انتمى أخيراً

إلى هذا النوع المدهش من الأسماك التي لا تخشى الغرق، بل اكتشف أنّ مسحة خجله الخفيفة والواضحة قد طارت من قلبه كفراشة.

لم يعد أنطوان منفرداً، وأصبح يتعرّف على نفسه بين الآخرين كما في المرايا النابضة بالحياة؛ الأمر الذي وفّر عليه الكثير من الجهود.

شعر أنطوان، وهو في غمرة السعادة، بأنّ جسمه قد امتلأ بالريش الصغير والناعم لفراخ الإوزّ، وهو يجري في عروقه ويملأ أعضاء جسمه؛ فاض قلبه ودماغه بأعشاب من الفصيلة الخبازية الملونة. يوم الثلاثاء، الأوّل من آب/ أغسطس، تلقّى رسالة من مصرفه تخبره بأنّ رصيده قد نفد. فعانى أولى مشاكله منذ بداية علاجه. فقد نسي، في غمرة لامبالاته المفرطة، أن يجد مصدراً للموارد، حيث اشترى بشهوانية جديدة أشياءً بدت له فائضة بعد بضعة أسابيع. كان عليه أن يجد نقوداً: الحياة حيوانٌ يتغذّى على صكوكٍ وبطاقات ائتمان. بوساطة إجادته للغة الآرامية وإجازته في علم الأحياء وإتقانه للسينما حول سام بيكنباه وفرانك كابرا، وكذلك شهاداته المتعددة، لم يكن بوسعه إيجاد وظيفة موصوفة تناسب مؤهلاته. حيّدت صدمة هذه العودة إلى الواقع آثار الأوروزاك، وكان بالتالي مفهوماً أن يحضر أنطوان إلى فرع الوكالة الوطنية للعمل في حارته .A.N.P.E. بعد انتظارٍ لثلاث ساعات، واقفاً مع عاطلين آخرين في قاعة مكيّفة بهرمونات الضغط، صاح رجلٌ في أحد الصناديق باسمه. جلس

أنطوان قبالة الرجل المطقّم الذي نقر على أزرار حاسوبه. مرّت خمس دقائق قبل أن ينتبه الرجل لحضوره. وأخيراً طرح عليه بعض الأسئلة، دون أن يشيح ببصره عن شاشة حاسوبه. ذكر أنطوان شهاداته الغريبة.

قال له الرجل:

- دعك من ذلك. أنت مجنون، أليس كذلك؟ لماذا اخترت دراسة هذه... هذه الأشياء...

- كنتُ مهتماً بهذه الأمور. كما أنني كنتُ على وشك أن أنهي إجازة في...

- هذا انتحارٌ مهني، لقد درست لتكون عاطلاً عن العمل!

قال أنطوان وهو ينهض:

- حسناً، إلى اللقاء وشكراً لمساعدتك ومساندتك لي.

- انتظر، لا تستسلم بسهولة. هل لديك إجازة سوق؟

- كلا.

- ليس لديك إجازة سوق... أمرٌ لا يُصدّق.

شرح أنطوان بتهكّم:

- في الحقيقة، تُظهر دراسة أنّ احتياطات نفط الكوكب ستنضب بعد أربعين عاماً. وبالتالي لا يجدر بي أن أبدّد أموالي على هذا الأمر.

- لا تُصعِّب الأمور كثيراً. لديك خيارٌ ثانٍ. انتظر، انتظر.

عرض الرجل، الذي لم يبارح بنظره شاشة حاسوبه، دورات تدريبية على أنطوان، تدريبات على مهن لم تكن تهمّه

ومداخيلها زهيدة. اكتشف أنطوان أنّه في موقف المتسوّل: لم يكن لديه الخيار، كان عليه أنْ يأخذ ما يوضَع في قبّعته من قطع نقدية صفراء، بطاقات مترو، بطاقة مطعم، أزرار سراويل داخلية، علكة ممضوغة. . . جهد الرجل ليجد له شيئاً ما، أيّ عملٍ كان؛ أذلّه بعطفٍ محترف. نهض أنطوان وغادر دون أن ينتبه الرجل لذلك.

تذكّر أنطوان زميله في الثانوية رافائيل والذي أصبح ثرياً. نابشاً في العلبة التي يرمي فيها أرشيفه كيفما كان، عثر على اسم عائلته ورقم هاتفه. طبعاً، لم يعد رافائيل يسكن مع والديه. زوّده والداه، الرائعان أو الخرفان، برقم هاتفه. تمنّى أنطوان أن يتذكّره رافي، وهذا لقبه المضحك، ويتذكّر الدور الذي لعبه في اختيار مهنته خلال نقاشٍ جرى في نهاية السنة الدراسية الأخيرة.

كان رافِي، الواثق جداً من نفسه، مرتاحاً مع الجميع؛ فقد كان على اتصالٍ صريحٍ ومباشر مع مَن لا يشكّ بأنه محبوب. لم يحظَ ضميره الانسيابي بالفرصة الأليمة للتعلّق بقسوة الواقع وللانجراح: فقد كان يندسّ وسط العالم. كان رافي يحبّ أنطوان ويجده فكهاً، وذلك بشكلٍ رئيس لأنّه لم يشعر بالنقد اللاذع لكلماته؛ لا سيما أنّه كان فضولياً حيال هذه الشخصية التي لم تكن محطّ إعجاب الآخرين. رأى رافي أنطوان غريب الأطوار ولم يفهمه. أمّا بالنسبة إلى أنطوان، فكان تناول الطعام قبالة رافي يمنحه الفرصة لئلا يضطرّ للإصغاء إلى نقاشٍ ليعلم

بأنّه سوف لن يكون مهمّاً. كان لرافي أنانية مَنْ يتحدّثون عن أنفسهم باستخدام الأنا: يتحدّث عن نفسه وعن الآخرين بالنسبة إليه وعمّا ما قالوه عنه... إلخ.

كان رافي يفتّت قطعة خبزٍ ويمزّقها ويسحقها كإشارة إلى عصبية غير معهودة في بيته. قرّب رأسه من أذن أنطوان وهمس له وكأنّهما جاسوسان أمريكيان في مطعم الاستخبارات السوفيتية K.G.B:

- لديّ مشكلة هل يمكنك مساعدتي؟

ردّ أنطوان باقتضاب، غير مقتنعٍ تماماً بأن تكون لدى هذه السبعين كيلوغراماً من الكمال مشكلة كبيرة:

- بل سوف أُطلق عملية إنسانية واسعة النطاق.

- إنّها مسألة مصيرية، أعلم أنّك مناسبٌ لهذا المكان.

- طبعاً، أنا الحزام الأسود للأنطولوجيا.

- صحيح. لقد اخترتُ دراستي، تمّ قبولي في أفضل المدارس التحضيرية... يمكنني متابعة طريق النجاح: العلوم السياسية، الدراسات التجارية العليا H.E.C، X، المدرسة الوطنية للإدارة .E.N.A ربّما أنضمّ فيما بعد إلى مجموعة كبيرة في موقعٍ مهم وأن أديره في النهاية، أو قد أنجح في مهنة في الشأن العام الرفيع...

قال أنطوان، ساخراً:

- قد تصبح رئيساً...

- نعم، هذا مؤكّد. أستطيع أن أحظى بهذا المستقبل

المشرق، ولكنني أرغب في شيءٍ مختلف. أرغب في أن أغامر وأن أقوم بما يستهويني. لا أريد أن أقول في نهاية حياتي بأنني نجحتُ في كلّ ما قمت به وأنني ثريٌّ ومحبوب وكلّ هذا الكلام، ولكنّني لم أحقّق ولعي. لم أتحدّث عن ذلك مع والديّ لأنني لا أريد أن أقلقهما، ولكنني أرغب في الانطلاق والتجوال والانجرار خلف ما يمليه عليّ قلبي. أحتاج إلى المغامرة، إلى إخراج مكنوناتي الدفينة، أشعر أنّ لديّ شيءٌ مميّز في داخلي. لدي حلمٌ سرّي، يا أنطوان، شغفٌ مجنونٌ بشكلٍ مطلق...

قال أنطوان، مندهشاً لأن يدع زميله في الدراسة نفسه ينجرف بشغفٍ يبدو أنّه غير معقول:

- ممتاز، يا رافائيل، ممتاز، عليّ أن أعترف بأنّك تفاجئني، كنتُ أعتقد أنّك أكثر ابتذالاً وأكثر وصولية.

- هذا جانبي الشاعري، يا أنطوان، أشعر أنّ لديّ روح فنانٍ. هل تعتقد أنّ عليّ أن أندفع وأكرّس نفسي تماماً لشغفي؟

- نعم، هذا واضح، هيّا. ارخِ القلوس. ستحتاج إلى الشجاعة وإلى الصبر، احرص على أن تحقّق حلمك، أجل، عشْ شغفك.

كاد رافي أن يطير فرحاً، صافح أنطوان متأثراً ولمعت عيناه بالعرفان. ولكي يشكره، قدّم له كوب ماء.

- في الواقع، يا رافائيل، لم تخبرني ما هو حلمك المجنون...

- سوف أؤسّس شركتي الخاصّة للسمسرة!

- العفو؟

- أسهم، سندات، صكوك. . . سأقوم بهذا العمل، يا أنطوان، بفضلك سأكسب أرباحاً طائلة!

في النهاية، لم يرَ والدا رافائيل بأنّ الأمر سيئ جداً، بل وقدّما له مليون فرنك لمساعدة صندوقه على الإقلاع. منذ ذلك الحين، كان أنطوان يشعر بالذنب حيال تلك الجريمة البلهاء: لقد صنع رأسمالياً جديداً. لقد هزّ كتفيه حينما قال له رافائيل بأنّه سيكون مستعداً على الدوام لمساعدته في حال احتاج إلى أيّ شيء، ولكن اليوم، نفد حسابه ولم يعد يرى من عائقٍ أخلاقي في القيام بأيّ شيءٍ كان للحصول على المال. حينما يكتشف المرء أنّه من النادرين الذين يراعون المبادئ الأخلاقية في العلاقات الإنسانية، قد يكون من المغري الاستغراق في اللاأخلاقية، ليس بدافع اليقين أو المتعة، وإنّما ببساطة لئلا يعود ويتألّم، إذ ليس هناك من ألمٍ أشدّ من أن يكون المرء ملاكاً في الجحيم، في حين يكون الإبليس في كلّ مكانٍ من بيته. سيسلك أنطوان هذا السلوك الذي يقوم على الاندماج بالتضحية بمثله؛ فعذاب النار يبيح كلّ شيء، يغفر كلّ شيء.

لم يستطع الحديث إلى رافائيل بطريقة مباشرة: فقد منعته السكرتيرة عن ذلك وطلبت منه ترك رقم هاتفه. بعد ساعةٍ، رنّ هاتف المقصورة قرب المخبز. كان رافائيل وقد هاج وسُرّ بالحديث مع مَنْ شجّعه على أن يمسك مصيره بيده.

- أنطوان! لو تعلم كم أنا سعيدٌ بالتحدّث إليك. أنت وأنا، أمضينا الزمن الجميل، أليس كذلك؟ ماذا حلّ بك؟ يجب من كلّ بد أن تأتي مع زوجتك لتناول الطعام في بيتي وأن تحدّثني عن عملك، سيكون هذا رائعاً!

- أنا أعزبُ وعاطلٌ عن العمل.

سادت لحظة من الصمت على الطرف الآخر من الخط. لم يفكّر رافائيل أبداً بأنّ نجاحه الشخصي لم يسبّب السعادة لكلّ كائن بشري على الأرض.

- هذه ليست مشكلة، أنت مرشدي الروحي، يا أنطوان، سوف أحلّ لك كلّ هذا الأمر. هذا أقلّ ما أدين لك به. يجب أن نلتقي!

اتّفقا على موعدٍ في مبنى (سان جيرمان دي بري) الذي يضمّ مقرّ شركة رافي. استقبل هذا الأخير أنطوان في مكتبه الفاره المزيّن بإعلاناتٍ ضخمة للأفلام. أُبرِمَت الصفقة بسرعة: أراد رافي أن يجنّد أنطوان.

- لا أعرف شيئاً عن البورصة...

- تماماً، أنت جديد في الوسط، لن يكون هناك خطر أن تتأثّر بالحماقات. أنا أثق بك.

- ماذا عليّ أن أفعل؟

- الأمر سهل: يكفي بيع وشراء أسهم في العالم أجمع. استشعار الأسهم التي سيرتفع أو ينخفض سعرها والإنصات

لحركة البورصة وإعمال الفطرة. ولهذا، ليس هناك ما يقلقني: فكلّ نجاحي هذا بفضلك. وبكل افتخار، رافق رافي أنطوان في جولة على الأقسام الفاخرة للشركة وقدّمه لزملائه ولماكينة إعداد القهوة. كان الجو متكلفاً ومكهرباً ولكنّه هادئاً؛ كانت علاقات العمل سلسة كما في مجتمعٍ تسوده المساواة. سمّت الصحافة المطيعة الرئيس كلينتون باسم بيل وليس باسمه الكامل ويليام؛ فهذا الاسم أكثر جاذبية ويعطيه صورة صديقٍ، صورة شخصٍ قريب، نتسامح معه بسهولة؛ كما يسمح بتلطيف الصورة السلبية المرتبطة بعمله. وبالاستراتيجية المؤثّرة نفسها، كان الجميع في الشركة ينادي رافائيل باسم رافي. بهذا التواصل السهل والمفتوح واللطيف، استطاع أن يمارس تأثيراً رقيقاً على مساعديه وأن يفرض، بطريقة وديه، إنتاجية أكبر وساعات عملٍ إضافية. أُعطي لأنطوان مكتب في القاعة الفسيحة التي تضمّ سماسرة الأوراق المالية السبعين للشركة. كان المكتب مجهّزاً بحاسوبين شخصيين وخزانة حديدية صغيرة رمادية اللون فيها سلسلة من الأدراج وفنجان قهوة. الجدران مزيّنة بأسعار مختلف أسواق كبرى البورصات العالمية. لمدّة أسبوع، راقب أنطوان مناورات زملائه وحيلهم؛ أعطوه نصائح؛ اشترى كتباً ليحفظ المصطلحات والآليات المالية: O.P.A, Nsdaq, O.P.E, F.E.D, C.O.B, Stoxx, F.T.S.E. 100, DAX 30، لم يلقَ صعوبة كبيرة في إجادة هذه اللغة وأسرارها التي كانت أسهل من الآرامية بكثير.

تغيّرت حياته. أصبح لديه راتبٌ ثابت يكفيه لأن يعيش ببحبوحة مع عمولة إضافية على نتائج عمله. ترك شقّته الصغيرة المجانية لينتقل إلى دورٍ علوي في الباستيل، في شارع روكيت. وإذ لم يستعد السيّد براليير عافيته، طلب أنطوان من جاره المصارع الحرّ فلاد الاعتناء به.

لم يعد يقابل رودولف الذي أراد أن يعيده إلى مسائل فكرية وإشكالية كان قد فقد أيّ ميلٍ نحوها؛ فمن دون ملاط النقاش والتعارض، تفسّخت علاقتهما. ظلّ أنطوان يرافق شارلوت إلى العجلة الكبيرة، ولكن دون أن يتبادلا الأحاديث. استشاط غانجا، ذو الطبع الهادئ جدّاً، غضباً وقال بأنّهم سوف لن يلتقوا مجدداً ما لم يترك مشروعه الغبي في أن يصبح غبياً. أهداه آس رباعية شعرية يُلاحظ فيها بأنّهم لم يعودوا يستنشقون الهواء ذاته وأنّهم أصبحوا غرباء عن بعضهم من دون أن يهجروا البلد. افترقوا ذات مساء بعد سهرة صامتة في حيّهم القديم غودموندسدوتير. نظر أنطوان إلى أصدقائه يبتعدون وسط ظلام الليل، ينيرهم ضوء جسم آس. لم يحزنه ذلك كثيراً: لم يعد هناك ما يقولوه لبعضهم. كان أنطوان مشغولاً بمهنته الجديدة، وطموحه في أن يصبح طامعاً وراغباً في اقتناء ألبسة من ماركات مشهورة. أصبح لديه أصدقاء جدد لديهم آراء حول كلّ شيء، وأصبح يرافقهم إلى حفلات موسيقية وسهرات. وأصبح يعيش بذلك الحياة الطبيعية لكلّ الشبّان الذين يملكون وسائل العيش الرغيد. كسب أنطوان أصدقاء استهلاكيين، جاهزين، أصدقاء

بنماذج متكررة لا يتردّدون في الامتناع عن مساعدته إذا ما واجه مشكلة.

من حيث المظهر، كان يمكننا الاعتقاد بأنّه مندمج تماماً في طبقة الأمراء هذه، ممثلاً بلا نقاش دور بزّته من ماركة Hugo Boss. إلا أنّه إذا نظرنا بتعمّق أكثر لاكتشفنا أنّه يضمر نوعاً من التحفّظ. في كلّ الأحوال، لم يجادل في أخلاق أصحابه ولم يبدِ قط رأياً قد يبدو جدّياً. انجرف أنطوان وسط هذا العالم الجديد واستمتع به بشيءٍ من اللذّة: لذّة الحرية المؤطّرة والاستسلام للتيار الجارف.

المال والنجاح والاندماج في وسطٍ قائمٍ على أسسٍ متينة، كلّ هذه العوامل ساهمت في اقتصادٍ ذاتي. لم تعد هناك حاجة للتفكير في رغباته، في أخلاقه، في تصرّفاته، في أصدقائه، في حياته، لم تعد هناك حاجة للفهم والبحث: يقدّم لك وسطك كلّ هذا جاهزاً. تلقى أنطوان جِهاز عرسه مع الشركة: هذه مسألة اقتصادات طاقة، وهذا أقل إعياءً، أقل عناءً من محاولة إيجاد كلّ شيء بنفسه، بل وابتداعه. كلا، لا حاجة إلى ذلك، سيقدّم لك بانفعالات مسبقة الصنع، وبأفكار مدبّرة مسبقاً.

بطريقة مدهشة، يشبه الناس سياراتهم. بعضهم لديه حياة بلا خيارات، تسير بطريقٍ مستقيم، غير مسرعة، تتعطّل وغالباً ما تحتاج إلى إصلاح؛ إنّها حياة مترهلة، غير متينة، لا تحمي ركّابها في حالة تعرّضها لحادث. حيوات أخرى تملك كلّ الخيارات الممكنة: المال، الحب، الجمال، الصحة، الصداقة،

النجاح، الكيس الهوائي، A.B.S، مقاعد جلدية، مقود مساعد، محرّك 16 صمام، ومكيّف.

في منتصف آب/ أغسطس، دخل أنطوان أجواء مهنته تماماً، أصبح سمساراً للأوراق المالية مثل الآخرين، وأصبح عمله سليماً. تابع الأسواق وتصرّف بمزيجٍ من الفطرة والمنطق، ولكنّه لم ينجح في الصفقة الكبرى التي قد تُدخِله إلى نادي أصحاب الملايين في مجال العمل. نسي التفكير بعواقب المضاربة وتلاعبه بالأرقام حول عالمٍ حقيقي لم يعد موجوداً في حقل وعيه الباطني.

ومع ذلك، كانت سمة تميّز أنطوان عن زملائه: لم يكن يطيق القهوة. حاول أن يشرب فنجاناً منها في بداية عمله في الشركة. وكانت نتيجة ذلك أنّه لم تُغمض له عين لليلتين. ومنذ ذلك اليوم، شرب طيلة النهار قهوة بلا كافيين. فنجان القهوة هو مسألة مكانة، فالسمسار الجيّد يجب أن يمسك بفنجان القهوة بين يديه أو يضعه على مكتبه. تماماً كما يمسك شرطيٌّ بسلاحه وكاتب بقلمه ولاعب تنسٍ بمضربه، يعمل السمسار بفنجان قهوته؛ إنّه أداة عمله، مطرقته الضاربة، مسدّسه من طراز سميث أند ويسون.

ثمّ فجأةً، من دون سبق تصميم، أصبح أنطوان ثرياً. كان ينقر بأصابعه كالعادة على أزرار حاسوبيه في مكتبه الصغير وسط هيجان نهارٍ عادي: صعود الأسعار، هبوط الأسعار، صرخات،

رنين الهاتف المتواصل، حالات انتحار، قعقعات، صيحات، الأزيز المنتظم لعشر ركوات قهوة مصفوفة على طول الجدار. . .
كان يُطرطق على الحاسوب بهدوء، وقد ثبّت سمّاعة هاتف بين أذنه وكتفه، يشتري الين، يرمي صنّارته في صُدْفة الأسواق، حينما أراد أن يمسك بفنجان قهوته ليبلّ ريقه الناشف فسكبه على لوحة مفاتيح حاسوبه الرئيس. انبعثت بعض الشرر والقليل من الدخان، وصدر صريرٌ وتشوّشت شاشة حاسوبه ورفّت ولكن عاد كلّ شيء إلى طبيعته بعد لحظة. ما عدا أنّ حساباته دلّت على أنّه قد أنجز عملية دسمة فاقت قيمتها مئات الملايين. تسبّب الانقطاع القصير لشبكة الحاسوب بنتائج متوالدة أدّت إلى عمليات حسابية مبتكرة. قال له رافي:

- كنتُ أعلم أنّها فكرة حسنة أن أوظّفك. ماذا فعلت لتتوقع هذه الصفقة؟

ردّ أنطوان، مسبل العينين:

- الحدس.

- وهذا لا يمكن تعلّمه. لا بدّ أنّك عملت على الموضوع بجدية، لديك سيطرة ممتازة على الأحداث، لم تفقد أعصابك وتحافظ على هدوئك. هذا ما أسمّيه، يا أصدقائي، الدم البارد!
صفّق كل مَنْ في القاعة لأنطوان، وربّت بعض زملائه بقوّة على ظهره، تطايرت تنانير وفُتِحت قوارير من الشمبانيا، وقدّم له رافي صكّ عمولته. نظر أنطوان إلى مبلغ الصكّ ودون أن ينتظر ذلك، بدا عليه التأثّر. تأثّر وكأنّه قد رُزِقَ بأطفالٍ. كان يمكن لذلك أن

يحصل حيث تضاعفت ثروته بستة أضعاف: أضيفت إلى جانب رقمٍ ما ستّة أصفار.

في تلك اللحظة، لم يتذكّر أنطوان بأنّه قد عرف ذات يوم بأنّ النفس هي أسهل ما يمكن إفسادها. وفّرت عليه حبّةٌ حمراء التفكير بأنّه استطاع في الوقت ذاته أن يبيع نفسه ويشتريها مع ثروةٍ لا يُحلَم بها.

ليلمس حقيقة ثروته، قبض أنطوان مكافأته بالقطع النقدية ذات الفئة الصغيرة. خرج من المصرف مع حقيبتين مليئتين بالأوراق النقدية ونضّدها في رزم على الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الزيتون في صالون منزله. كانت تلك الآلاف من المستطيلات الورقية ذرّات نجاحه. استسلم قليلاً لنشوة الرغبة البشرية، داخ فابتسم رغماً عنه. أصبح غنياً؛ أي أنّه ملأ جزءاً من عقده وهو يحقّق استيهاماً تتقاسمه مليارات الأشخاص.

ولكن هذا الإحساس الذي سمّاه «السعادة» سوف لن يطول. ماذا سيفعل بهذه الثروة؟ إذا أراد أن يصبح مليونيراً طبيعياً تماماً، لا يمكنه الاكتفاء بالاحتفاظ بهذا المال. أن يكون المرء ثرياً ليست غاية بذاتها. يجب أن يكون المجتمع والناس في الشارع، بإعجابهم ورغبتهم، مرآة نجاحه. أدرك أنطوان بأنّه بتحوّله إلى رجلٍ ثري، لم يقطع سوى نصف الطريق: بات من الضروري الآن أن يرغب في الأمور التي يرغب فيها الأثرياء. وبدا له أنّ هذا هو الجزء الأصعب. لكي يصبح ثرياً، ما كان عليه سوى أن يسكب فنجان القهوة على لوحة مفاتيح حاسوبه؛

لاستخدام ثروته، كان عليه أن يقدح زناد فكره. وهو يتصفّح المجلات، أعدّ قائمة الأشياء التي عليه أن يرغب فيها. والأشياء التي ينبغي ألاّ يرغب فيها: حرِص على ألاّ يقع في عيوب الأثرياء الجدد، الفئة الجديرة بالاحتقار التي لا تمتلك سوى المظهر الأقلّ أهمية من مظاهر الثراء، أي المال.

وكأنّه أصبح بابا نويل، قام أنطوان بشراء لوازمه مع ظهريته الضخمة المصنوعة من أغصان الصفصاف وزلاجته التي تجرّها الغزلان.

لتزيين منزله العلوي وإكساء شهرته، اشترى لوحاتٍ من الفنّ المعاصر. في معرضٍ باريسي فاخر، اختار لوحات رسامٍ لا بدّ أنّه عبقري نظراً إلى عدد الأصفار الموضوعة تحت توقيعه. وصفه صاحب المعرض على أنّه فان غوغ الجديد. وأكّد لأنطوان في سبيل إقناعه: «كما كان لديه قبّعة تغطّي أذنيه». فتظاهر أنطوان بالإعجاب وأطلق صيحة «أووه!» استحساناً لحماقة التاجر الفني المفضوحة وفتح صندوقه الصغير. ومن ثمّ بادر إلى شراء سيارة فارهة. لم يكن يجيد قيادة السيارة كما لم تكن لديه الرغبة في تعلّم ذلك ولكن ذلك لم يؤثّر في شيء على قراره بتكريس هذه الشعيرة الرأسمالية. يشتري معظم الناس سيارة، حيث يُربَط هذا الخيار بالنسبة إلى العدد الأكبر من الناس بأسبابٍ مالية. لم يشأ أنطوان أن ينشغل بذلك، كما وجد نفسه أمام خيارات مذهلة من الماركات والموديلات واستطاعة المحرّكات. لاحظ أنّ مختلف السيارات الفارهة غالباً ما كانت

تناسب نمطاً خاصّاً من الثروة: كان الشباب من أصحاب الملايين في شركة رافي يقتنون سيارات رياضية بينما الأكبر سنّاً يقتنون إما مرسيدس أو بي أم دبليو. اشترى أنطوان السيارة التي ستؤكّد أنّه شاب وألمعي وسمسارٌ مليونير: سيارة بورش حمراء. سلّم الوكيل السيارة أمام منزله وظلّت هناك كدليلٍ ساطع يمجّد نجاحه وقدرته.

في متاجر محروسة باحتقار الباعة الشديد للذين لا يملكون إمكانية التسوّق فيها، استُقبِلَ أنطوان كأمير عندما شاهدوا تاجه اللدن: بطاقته الائتمانية المذهّبة. اشترى بزّاتٍ أنيقة كانت لتُضحِك الأجيال المقبلة، والتي أشاعت، للحظة، تفوّقه على عامّة الناس الذين لا يمتلكون وسائل إظهار ذوقٍ بهذه الرداءة وبتباهٍ طبيعيٍّ إلى هذه الدرجة.

الانسلاخ (حسب تعريف قاموس بوتي روبير) هو «تغيّر جزئي أو كلّي يصيب قوقعة أو قروناً أو جلداً أو ريشاً أو شعراً... إلخ. بعض الحيوانات في بعض فصول السنة أو في مراحل معيّنة من عمرها».

أُصيب أنطوان بالانسلاخ. بدّل أسماله القديمة بثيابٍ أنيقة؛ وعطّر بشرته بعطورٍ باهظة الثمن وعالجها بالزيوت والحليب، خضع لجلسات التدليك والعناية بالبشرة وجلسات أشعة U.V في مراكز التجميل وقام بحلاقة شعره أسبوعياً في صالون فاخر. والانسلاخ تغيّرٌ في نبرة الصوت البشري في لحظة البلوغ. وهكذا بدا لأنطوان بأنّه فجأةً، في غضون أسبوعٍ واحد، قد بلغ

سنّ الرشد. قبل فترة نجاحه، لم يكن صوته فاعلاً كفاية في الحياة اليومية، حينما تعلّق الأمر بطلب شيءٍ ما من تاجرٍ، حينما تابع شؤونه مع موظفي الإدارات أو ببساطة خلال مناقشةٍ: كان يحصل أحياناً أن لا يُسمَع صوته رغم وضوحه. أمّا الآن، ودون أن يتأكّد من تغيّر النبرة، كان صوت أنطوان مسموعاً ومصغيّاً إليه ومستجاباً له في الحال.

مع كلّ حكايات الانسلاخ هذه، يمكننا القول أنّ أنطوان قد تحوّل إلى ثعبان. لم يعد له صلة كبيرة بالكائن البشري الذي كان، وكأنّه قد غيّر نوعه.

تضخّمت ميزانيته. علاوة على عملية شراء اللوحات المكلفة والسيارة والألبسة، قدّم لمكانته أجهزة إلكترونية ومسجّلة وفيديو وأجهزة معلوماتية. في الحقيقة، لم يكن يستخدم تلك الأجهزة المتقنة والباهظة الثمن. مثلما لم يأكل مجموعة الأطعمة الظريفة التي كدّسها كلّ مساء في ثلاجته الأميركية الضخمة. كان عقله لا يزال في طور الشراء وليس الاستهلاك. حافظ أنطوان على أذواقه البسيطة. كان منزله أشبه بمتحفٍ لعجائب التقنية المعاصرة، بمقبرة للأجهزة الحديثة.

لكي يظلّ حسابه في المصرف يغذّي أعماله الاستهلاكية العملية، سكب أنطوان مرّة أخرى فنجاناً من القهوة الخالية من الكافيين فوق لوحة مفاتيح حاسوبه. ومرّة أخرى، نال الجائزة الكبرى: المال حيوانٌ أليف، كلبٌ وفيٌّ عرفَ طريق حسابه المصرفي. كان النهار يشارف على نهايته. كان جميع السماسرة

في طريقهم للانصراف حينما دعا رافي أنطوان إلى مكتبه. كانت فتاتان ترتديان فستاني سهرة مثيرين تحيطان برافي.

صرخ رافي:

- أنطوان! أنت مذهل يا صديقي. ها هي عمولتك.

قال أنطوان وهو يرتّب الملايين في الجيب الداخلي لسترته:

- شكراً. حسناً، طاب مساؤك...

- كيف «طاب مساؤك»؟ سنقضي السهرة معاً. لنحتفل بعبقريتك. أقدِّم لك ساندي.

قالت إحدى الفتاتين وهي تبتسم وتمدّ له يدها الرقيقة:

- سعيدة بلقائك.

تابع رافي:

- وسيفرين التي ستكون مراقِصَتك هذا المساء، يا محظوظ.

نظر أنطوان إلى سيفرين وجسمها الرائع ووجهها الجذّاب وعينيها الطافحتين بالرغبة حينما نظرت إليه وقال في نفسه بأنّ هناك مشكلة. وإذ شعر بهدوء بأنياب شخصيته البازغة من أعماق وعيه، كان لا بدّ له أن يتناول حبّتين من الأوروزاك لتدارك هذا الخطر ولكنّه كان قد نسيها في بيته. سأل رافي إن كان بإمكانهما أن يتحدّثا لوحدهما للحظة. تمنّى رافي على الفتاتين أن ينتظرانهما في السيارة. خرجتا من المكتب بهيأةٍ من التحدّي الشهواني.

قال أنطوان بنبرة عاتبة:

- لا يمكنني تصديق أنّك توجّه لي صفعة كهذه.

- أي صفعة؟ عمّا تتحدّث؟

- تدفع إليّ بمومسٍ... كنتُ أعتقد أنّك تعرفني أفضل، يا رافائيل. لقد خيّبت أملي.

قهقه رافي:

- عاهرة؟ أتعتقد أن سيفرين عاهرة؟

- يبدو لي هذا حتمياً.

- عليك أن تكون أكثر ثقةً بقدرتك على الإغراء، يا أنطوان. كلا، سيفرين ليست عاهرة.

- إذاً لماذا تريد أن تخرج معي؟ وخاصّة لماذا يكون لها هذا الوجه الشَّره حينما تنظر إليّ؟ وكأنّها تنظر إلى براد بيت.

- لقد حدّثتها عنك وأخبرتها بأنّك أحد سحرة المال، وكلّ ما يتعلق بك. أؤكّد لك بأنّك فاتن.

- حسناً. وماذا بشأن ساندي هذه؟ لديك يا رافائيل امرأة مثيرة...

- أوه كلا، لا توبّخني!

- كلا، لا أقصد ذلك، ولكن... أجل، سأوبّخك، لأنّك...

- ستوشي بي؟ لأنّ الوشاية عادة سيّئة. سيذهب الوشاة إلى نار الجحيم. أنت متزمّت بعض الشيء. خفّف من غلوائك.

- ستكون زوجتك تعيسة، لا يمكنك فعل ذلك.

- سوف لن تعرف زوجتي شيئاً، وبالتالي لن يضيرها هذا الأمر، في المحصلة الأمر ليس سيئاً.

- لماذا تفعل هذا؟ لديك حبّ...

- في الحياة، هناك الحبّ. هناك الرغبة أيضاً. تبّاً، يا أنطوان، نحن في العام 2000، هناك تحرّر جنسي، استيقظ. الإنسان حرٌّ في جسده، الفتيات متحررات.

كان لرافي عجرفة أولئك الأمراء السوقيين الذين يخلطون بين امتيازاتهم والحقوق، بين تبريراتهم والحقيقة. جلس أنطوان في أريكةٍ أمام المكتب. حكّ ممحاةً فوق مفكّرة، وعيناه ساهيتان في الفراغ. ظلّ على تلك الحالة لدقيقة كاملة. في الأثناء، رتّب رافي أوراقاً في صندوقه الصغير. حدّق أنطوان في رافي:

- بخصوص التحرّر الجنسي...

- هل تريد دروساً؟ ستعطيك سيفرين دروساً... إن نظرت في ما أريد قوله.

- إحدى زميلاتي تشاطرك الرأي، سوف تصوّت لك.

- طبعاً، تغيّرت الأمور، يجب أن يكون المرء أقلّ تشدّداً. إنّها تستمتع بالجنس وهي محقّة.

- لا أدري إن كنت تعرفها، اسمها ميلاني.

لفظ رافي اسمها ممتقعاً:

- ميلاني؟ ميلاني التي تعمل في ناسداك؟

مستنداً إلى المكتب، أدار أنطوان أريكته المتحركة. نظر إلى رافي وراقب ردّة فعله، وقد علت شفتيه ابتسامة وطغى ما يشبه الكآبة على سطح عينيه. نهض وأمسك بكتف رافي.

- نعم. إنّها موافقة، وبصراحة، هي مستعدة لأن تضاجع أيّاً كان لفرط ما هي متحررة. هذا رائع، أليس كذلك؟ ولكن المشكلة هي أنّ لا أحد يريد أن يضاجعها. وبالتالي... أقول في نفسي بما أنّك متحرّر أيضاً، ربّما تستطيع أن تسدي لها هذه الخدمة...

- ولكن ميلاني... إنّها حقّاً... يعني، أنت ترى... ليس لديها أيّ شيءٍ من...

- هي بالتّأكيد أكثر لطفاً وذكاءً من كلّ فتياتك من أمثال ساندي، لا عناد معها، أهذا ما تريد قوله؟

- إنّها قبيحة، يا أنطوان، أنا آسف، ولكن هذه هي الحقيقة، إنّها أشبه بهيكلٍ عظمي. إنّها دواء مضاد للفياغرا.

- وبالتالي؟

- وبالتالي ماذا؟ ماذا تريدني أن أقوله لك؟ إنّها الطبيعة: لا يكون الجميع بالجمال نفسه. هناك حالات إجحاف طبيعية، لا يمكنني فعل أيّ شيء في هذا المجال. جسدها ليس مناسباً لهذه الرياضة. ولكن هناك رياضات أخرى. من الأفضل لها أن تضع قواها في الحبّ، وحدها المشاعر يمكنها أن تمرّر جسداً كجسدها. الحبّ أعمى. أنت تعرف المثل القائل: إنّها فتاة للصداقة وليست للمضاجعة.

- فقط؟ ولكن... يا رافائيل، أنت لا تفهم عليّ... إنّها ترغب في الجنس، تريد أن تقهقه مثلك ومثل ساندي.

- يمكنني أن أسأل لها عن رجالٍ عميان. اسمع يا أنطوان، غداً، سأعرض عليها أن يدفع تأمين الشركة نفقات عملية تكبير صدر بالسيليكون. سيقلّل هذا من الأضرار.

- أنت فعلاً رحيم وخيّر. وما دمتَ كذلك، ما عليك إلا أن تنصب لها عضواً ذكرياً في يدها...

- استيقظ يا أنطوان، نحن لا ننساق لأوهام الشخصية. إنّها لا تسبّب الانتعاظ. ربّما يكون هذا مؤسفاً، ولكن هذا هو الحال. ليس بوسعي فعل أيّ شيء.

- يقول كيرك دوغلاس: «دلّني على امرأة ذكية، أقول لك «ها هي امرأة مثيرة»».

- هيه يا أنطوان، ومع ذلك لا تريدني أن أضاجعها فقط لأكون منسجماً مع نفسي؟

- ربّما يكون هذا جيّداً.

كانت ميلاني من نوع الأشخاص الذين يحبّون من يدينونهم، مثل أولئك الفقراء المعجبين بالأثرياء؛ في حين لم يكن رافي يشتهيها لأنّها قبيحة وكانت هي تشتيه لأنّه وسيم. بعد ذلك بأسبوع، وصلت إلى العمل وقد وضعت مقوّراً على صدرها الجديد، الضخم والقاسي. بالنسبة إلى بعض الرجال، كان يكفي جعل الصدر ظاهراً. لم تعد شبحاً في نظر زملائها: لفتت أخيراً، بثدييها، نظر الرجال.

كان رافي راضياً بشهامته، ولكنه كان قلقاً على أنطوان بسبب ما سمّاه «روبيسبيريته الشعورية». وبمضايقةٍ ودّية، أقنعه بالذهاب لاستشارة صديقة تدير شركة لتأمين اللقاءات الغرامية. أعطى كلّ ضمانات الجدّية، وأكّد له بأنّ ذلك لن يلزمه بشيء، وترجّاه أن يجري على الأقل مكالمة مع صديقته. رضخ أنطوان لكي يتركه رافي بهدوء مع تعاليمه الدينية الفاجرة وخطاباته المنافقة. قبل بضعة أسابيع، كان يرى الحبّ كشكلٍ من أشكال الفن، أو على الأقلّ حرفة، أمّا الآن فهو يتقدّم في العالم الجديد، الأكثر واقعية بالتأكيد، حيث الحبّ يُعَدّ شكلاً من أشكال الاستهلاك ومكاناً للعزل.

في الطابق الخمسين من مبنى تجاري يضمّ مقرّات شركات التقنيات العالية، دخل أنطوان إلى المكاتب المزدحمة للشركة المتخصصة بأمور الزواج. لا حواجز؛ تحرّك الموظّفون بكلّ الاتجاهات، ورنّت الهواتف دون انقطاع؛ وشكّل النقر على أزرار الحواسب نوعاً من الموسيقى التي قد تُعزَف على I.R.C.A.M. دخل أنطوان إلى مكتبٍ من طراز إنجليزي منعزل عن الحركة والصخب. انتظر بضعة ثوان، وحيداً، واقفاً على قدميه. كانت الغرفة منارة ومرتّبة. كانت بضعة كتب موضوعة على الرفوف وبعض النباتات مصفوفة بجانب الجدران، وبعض الأغراض الفنية السرية، وجهاز حاسوب من طراز آبل سماوي اللون، ونافذة واسعة. دخلت امرأة أربعينية حيوية وترجّته أن

يجلس ومرّت لتجلس خلف الطاولة. كانت ترتدي فستاناً أنيقاً ومريحاً كفايةً لئلا يعيق حركتها وربّما أيضاً ليخفي شيئاً من سمنتها.

- أنت من طرف رافي، أليس كذلك؟ حسناً، سنجد لك حلاً. يجب ألاّ تصعّب الأمور، لديك خيارات. هل لديك شروط خاصّة؟

- ماذا تقصدين؟

- شقراء، سمراء، صهباء، الطول، المهنة. هناك الكثير من المعايير. لا أستطيع أن أعدك بتأمين لقاء مع امرأة بالمواصفات التي تريدها تماماً ولكننا نستطيع أن نقارب تلك المواصفات. أدارت المرأة حاسوبها وفتحت بطاقات التعريف ونقرت بضع كلمات. بدت متعَبة، منهكة القوى، وبالوقت نفسه عصبية ومتوتّرة. حدّقت في أنطوان منتظرةً قائمة معاييره.

- لا أريد إعطاء تفاصيل. على كل حال... أعتقد أنني قد ارتكبتُ خطأً بمجيئي إلى هنا. تقبّلي اعتذاري.

- هل صدمك الأمر؟ ولكن الأمور تسير بهذه الطريقة، باستثناء أنّنا نستخدم بدل المصافي اللاشعورية، مصافي علمية. والنتيجة واحدة. إذا كان لدينا أفضل نسبة من النجاح من بين الوكالات المتخصصة بأمور الزواج، فهذا ليس مصادفةً: نحن نعمل في التجارة وليس في المشاعر. في تجارة المشاعر إن شئت. لنستأنف البحث. وبالتالي ليس هناك صورة محدّدة.

نقرت بعنف على أزرار الحاسوب. رنّ الهاتف ولكنّها لم

ترفع السمّاعة. توقّف الرنين. نظرت إلى أنطوان وحدّقت فيه بعينٍ خبيرة وكأنّها تثمّنه.

- امرأة في سنّي تقريباً...

- رائع، اسمع، يا بني، ابذل جهداً. سوف نعدّ لك ملفّاً وبناءً عليه ستهتمّ بك زبونات. وبالتالي أحسن تقديم نفسك.

- أتقصدين أن أتحدّث عن هواياتي؟

- نعم، سنضع هذا في نهاية الملف. ولكن أوّلاً، يجب أن نضع وضعك الاجتماعي في المقدّمة.

- لا أحبّذ هذا، لا أريد أن...

- أتسخَر منّي؟ ليس لديّ وقت أضيّعه مع أناس يريدون أن يُحبّوا لشخصهم. لو كنت أكثر وسامةً، لوجدت بلا عناء فتيات يحببنك لظُرفك ولطفك. ولكن هنا... يا فتى، لسنا هنا لإعطاء المواعظ، لنقول هذا جيّد وهذا سيّئ، ببساطة، يسير العالم بهذه الطريقة، شئت أم أبيت، هذا هو الحال، وبالتالي استغل كلّ الفرص. لقد قال ميكيافيل في السياسة أموراً قد تبدو بذيئة، ولكنّها لا تجانب الحقيقة. نحن ميكيافيليو الحب. لا أقول إن المرء يحبّ بسبب المال ولون الشعر وعرض الصدر ولكنّ الإحصائيات تعلّمنا أنّ لهذه الأمور تأثيرٌ حاسم. المهنة، الجهاز العضلي، الطول، العمر، المال، الوزن، السيارة، الثياب، لون العينين، الجنسية، ماركة الكورن فليكس الذي تتناوله صباحاً... لا يمكنك تخيّل عدد العوامل المؤثّرة. هل تعلم أن الشقراوات يتفوقن على السمراوات بنسبة 24% في العلاقات

الجنسية؟ هناك حقائق في الحبّ وفي الجنس، وهل تعلم ماذا؟ هذه الحقائق لا تخصّ أحداً لأنّ الجميع مقتنع بفرادة حكايته. لدي أطنانٌ من إحصائيات تقول العكس.

قال أنطوان، منعشاً:

- أنتِ تعمّمين. برأيي للشخصية دور. ربّما ليس للجميع ولكنني أعرف أناساً يعيرون أهمية للشخصية. ربّما تبالغين بعض الشيء.

- تعتقد ذلك؟ ربّما. أنا تعيسة وبالتالي لي الحق في أن أبالغ وأن تكون لي نظرة متشائمة عن كلّ هذا الأمر. ومع ذلك أعتقد أنني موضوعية، ولكن في مسألة الحبّ، الحقيقة بالتأكيد شيءٌ من الوقاحة. باختصار، يزعجني أن أكون موضوعية إلى هذه الدرجة وأن أدرك أنّ لا سبب لكلّ هذا وأنّ المرء ليس مسؤولاً عن أيّ شيء. أودّ أن أكفّ عن كوني موضوعية لأستطيع أن أحقد وأن أكره، في النهاية، زوجي الذي هجرني من أجل فتاةٍ في العشرين من عمرها.

ضربت فأرة الحاسوب بالطاولة وضغطت على زرٍّ من لوحة المفاتيح ونهضت. ابتسمت بخبثٍ مشوبٍ بالحزن. التفتت نحو الرفوف وغيّرت أماكن الكتب وقلبت تمثالاً صغيراً لحيوان كوالا تهشّم أرضاً. لملمت الحطام.

غمغم أنطوان وقد نهض وساعدها في لملمة قطع التمثال المهشّم:

- أنا آسف. . .

قالت المرأة عابسة:

- لماذا تتأسّف؟ أمنعك من التأسّف ومن انتقاد زوجي. من تظنّ نفسك؟

- أردتُ فقط... لقد هجركِ من أجل فتاةٍ أصغر...

- وماذا إذاً؟ أنت تُخطئ بوقوفك إلى جانبي. أنا، ما كنتُ لأقع قط في غرام رجلٍ مثلك.

- لأنني لستُ ظريفاً بما فيه الكفاية؟

- كلا، بل لأنّك أصغر منّي.

- فقط لهذا السبب؟

- هذا مهمّ، في كلّ الأحوال بالنسبة لي. لا تسألني لماذا. ولكن يجب عليّ القبول بأنّ هذا من طراز زوجي المغفّل نفسه الذي يفضّل فتاة صغيرة. لا أبرياء في الحبّ، ليس هناك سوى ضحايا.

- إنّ الاختيار حسب هذا النوع من... المعايير فيه شيءٌ من الحساب...

- كلا، أنت تخطئ. لا شيء محسوب، الجميع مخلصون في الحب. زوجي مغرمٌ حقّاً بهذه السافلة. لم يقل لنفسه: «أوه، زوجتي في الأربعين من عمرها، ثدياها متهدّلان، لم تعد بشرتها نضرة، وزنها يزداد، سوف أستبدلها». هذه هي الحقيقة، برأيي، ولكنّه لم يقل هذا لنفسه. ببساطة، تمّ الأمر في هذه الظروف. هذا بعد أن نتمكّن من تبرير وتشريح سلوكٍ. ربّما كنتُ سأهيم بك وربّما كنت ستصبح أوفى أصدقائي، ولكنني ما كنتُ لأقع

في غرامك، بصدق. حينما أسمع أناساً يقولون بأنّهم لا يعرفون لماذا وقعوا في غرام شخصٍ ما، يجعلني ذلك أبتسم. ربّما لا يريدون أن يعرفوا ولكن علاوةً على الأسباب المرتبطة بلقاء شخصين، هناك أسبابٌ نفسية واجتماعية ووراثية. . . الحبّ والإغواء هما من الأمور الأكثر لاشعورية وعقلانية في آنٍ واحد. إنّ القول بأنّ ليس هناك أسباب تسمح بعدم الاعتراف بأنّها ليست مبعث افتخار، فمن له مصلحة في الحقيقة؟ حينما سألت زوجي لماذا هجرني من أجل هذه الفتاة الصغيرة الرقيقة الشقراء المثيرة ذات النهدين الرائعين، النابضة بالحياة، قال لي: «لا أدري يا عزيزتي، لا نعرف لماذا نقع في الغرام، هذا يحصل، هذا كلّ ما في الأمر». وهل تعلم ما هو الأسوأ في الموضوع؟ هو أنّه كان صادقاً، كان ابن العاهرة يؤمن صادقاً بهذه الترّهات. كان هذا السافل صادقاً. هل تعلم ماذا كانت تقول السيّدة ستائيل؟ «بخصوص المشاعر، لا يحتاج المرء أبداً لأن يكذب ليتفوّه بأكاذيب». وبالتالي، نعم، أنا أبالغ. . . ولكنني محقّة في مبالغتي، لأنني. . . عجوز، الآن، أنا جزءٌ من الدهماء.

واصلت المرأة حديثها باكيةً، وعاتبت نفسها على التشكّي وشتمت زوجها وخطيبته الجديدة. لم تلاحظ حينما توارى أنطوان، معتذراً.

يومٌ حافلٌ باليأس، وقد قال لنفسه أنّ تصديق هذه الحقائق التي تحني الظهر، هو تحجيمٌ للواقع الذي ينتجها: فمن أراد إيجاد البراهين على شقائه وجدها، إذ في الشؤون الإنسانية يجد

المرء دائماً ما يفتّش عنه. فقرّر أنّ كلّ حقيقة تؤلمه هي أخلاق وأنّ الحقيقة ذاتها هي أخلاق وأنّه يستطيع أن يواجه ذلك بالقدرة الخلاّقة لأخلاقه. ولكن حينما خرج من العمارة، رغم اضطرابه، لم يتذكّر ذلك. أو بعبارة أدقّ، لم يكن بحاجة لأن يتذكّر ذلك: تناول حبتي أوروزاك واختفى شبح الكلمات المتقززة للمرأة. اتّصل أنطوان برافي وروى له ما جرى ونصحه بأن يعتني بصديقته. حام ظلٌّ قريباً من ضميره أثناء المكالمة، ولكنه تلاشى حالما عاد إلى إيقاع الحياة حيث تتوالد الأيام فيما بينها.

بالنسبة إلى المندمجين تماماً في المجتمع، ليس هناك سوى فصل واحد، صيف دائم، يُضفي السُمرة على عقولهم بشمسٍ لا تغيب عند رقادهم: يحلمون حيث لا يحلّ الليل أبداً. كان أنطوان قد عاش خمس وعشرين سنة من الخريف الماطر؛ الآن سواء كان الفصل شتاءً أم ربيعاً أم خريفاً، لن يكون لضميره سوى سلطة الصيف غير القابلة للقسمة.

بدأ شهر أيلول/ سبتمبر. وكانت الشمس لا تزال متّقدة وتداعب بين يدي الريح بشرة المارّة. في ذلك المساء، مكث أنطوان أمام شاشة تلفازه، يتنقّل بين المحطات ويشاهد البرامج المثيرة والمضحكة. في الحقيقة ليس المهمّ ما شاهده: كان همّه الوحيد تأثيرات التلفاز المهدّئة والمقاومة للقلق، ذاك الشعاع الشمسي الذي يدفّئ ويملئ كهف وعيه. كان يمسك بجهاز التحكّم ويتنقّل بين القنوات. كان قد غلّفه بنسيجٍ حريري سميك وزوّده بمحرّك صغير يُصدِر صريفاً خفيفاً حينما يمرّر يده فوقه. جهاز تحكّم مع ملحقه. بحث عن البرامج التي قد تزوّده بذريعة موضوعها ليبرّر اختياره لها. رغم حبّات الأوروزاك الأربع، لم يشعر أنطوان بالراحة. وذلك منذ أن وجد، وهو عائدٌ من عمله، علبةً أمام باب منزله. كان طرداً بريدياً تافهاً لم يرتاب فيه أنطوان حينما فتحه في مطبخه. نزع الورق والشريط اللاصق وحينما فتحه، قذفه انفجارٌ نحو الثلاجة. ظلّ يتأمّل محملقاً في الصندوق الصغير المفتوح الذي كان يحتوي على طبعة جيب من رسائل فلوبير. استعاد قلبه تدريجياً إيقاعه المنتظم. بكى دون أن

يستطيع التوقّف وكأنّ دموعه حاولت أن تتغلّب على منظر الكتاب فوق الطاولة أو تُطفئ الحريق الذي أحدثه بانفجاره في ذاكرته. لم يلمسه، لم يجرؤ على ذلك. كانت رسائل فلوبير أحد الكتب الأثيرة لأنطوان قبل تحوّله. كان يعشقه، وقد وجد نفسه غالباً في تحسّس وخيبات ومصاعب فلوبير في أن يكون ببساطة حيّاً وأن يتحمّل عصره. هذا الكتاب الذي ظهر من جديد فجأةً. كان وكأنّه قد قضم تفّاحة مسمومة بلبلت جسماً وفكراً اعتقد أنه قد روّضهما. ظنّ أنّ هذا الهجوم هو من صنيع أصدقائه القدامى، الذين يحاولون، بتجريحه، استعادته. استجمع إرادته في مقاومة تلك القنبلة الورقية التي جازفت بتعكير الرتابة الهادئة والخالية من المفاجأة لحياته. خشية أن يَضْعَف، ترك الكتاب على الطاولة وشدّ إحساسه إلى التلفزيون وفي يده جهاز التحكّم ذو الخرير.

دخلت ألوان الليل إلى عمارة أنطوان. ظلّ القمر علانية على الشاطئ الرملي الأسود للمدى. حاول أنطوان أن ينبهر بالعين الوحيدة للوحش العملاق حينما، فجأةً، ظهر على الشاشة خطّاف صيد. ترافق ذلك بشررٍ والقليل من الدخان الأسود وكلمات مقدّم برامج تلوّى، ثم لم يعد هناك أيّ شيء، أيّ شيء سوى ذلك الخطّاف الذي استقرّ في وسط الشاشة. استدار أنطوان بحيوية، سقط جهاز التحكّم من يده. لم يكن أيّ ضوء مُناراً في العمارة، كما لم يستطع أن يميّز الشكل البشري للصياد بالخطّاف. فكّر أنطوان مطمئناً أنّه لم يكن كائناً من خارج

الأرض. وتفاجأ بأنّه لم يشعر بالخوف، وذلك بالتأكيد بسبب الجرعة الزائدة من الأوروزاك.

أرغم نفسه على الارتجاف وعضّ شفته السفلى. حينما شاهد الشبح وجده رجلاً بطولٍ عادي، وبدون أجنحة الخفافيش طبعاً.

في الشارع، أضاءت الفوانيس. وأصبح أنطوان يميّز الآن الرجل الواقف أمامه.

غمغم:

- داني بريان. . . أنت داني بريان. داني بريان لصّ. هل ستقتلني؟ هل أنت قاتل محترف؟

كان أنطوان يعرف بغموض ذاك المغني الذي بدا وكأنّه قد تحجّر في الخمسينيات؛ وجد العديد من أغانيه لطيفة وساحرة. كان لكلّ ذلك معنى: كان داني بريان بتسريحته الشبيهة بتسريحة آلفيس وبزّاته الزازو وأغانيه المنتمية إلى عصرٍ آخر، رجلاً مضطرباً عقلياً. ضحك داني بريان. كان يرتدي بزّة سوداء بسيطة وقميصاً أبيض مفتوحاً على الصدر وزوجاً من الأحذية السوداء المبرنقة. زيٌّ كان ليرتديه جيري لي لويس.

- خطأ، خطأ، خطأ. أنت مخطئ تماماً، يا طوني. لستُ داني بريان، ولا لصاً، ولا حتى قاتلاً محترفاً. هل لقاتلٍ محتَرَف أن يرتدي هذه الثياب الفاخرة؟

- لا أدري، ولكن شخصاً طبيعياً لن يرتدي هكذا بزّة. أنت

داني بريان. تتكلّم مثله، لديك ابتسامته نفسها، وتسريحة شعره الملمّع نفسها. أنت داني بريان.

- خطأ يا طوني: أنا شبح داني.

- هل مات داني بريان؟

- كلا.

- إذاً كيف يمكن أن تكون شبحه؟

- أنا شبحٌ سابقٌ لأوانه. هذا أمرٌ يحصل. لا أظهر إلاّ حينما ينام داني بريان الحيّ.

- أنت تمزح.

- كلا، يا طوني. المِسْني.

اقترب داني بريان أو شبحه من أنطوان بتراخٍ مفرَط، وعينين ماكرتين وهو يُطقطق أصابعه.

قال أنطوان وهو يتراجع:

- لقد فهمت، أنت شرير.

قال داني ضاحكاً:

- أنا شبح! المِسْني وستجد أن يدك تمرّ عبر جسدي.

وفي الحقيقة مرّت يد أنطوان عبر جسد داني. وسلّى ذلك أنطوان كثيراً.

- كفى! ارفع يدك عنّي! لستُ لعبةً يا طوني.

- هل يمكنك الكفّ عن مناداتي «طوني»؟

- لا مشكلة يا طونيو.

- ممتاز، استمرّ في مناداتي «طونيو»، هذا أقلّ فظاعةً.

- لا مشكلة، يا طوني. هل تسمح لي بإلقاء نظرة داخل ثلاجتك؟

دون أن ينتظر الجواب، دخل داني إلى المطبخ. فتح باب الثلاجة مضيئاً الغرفة. لحق به أنطوان.

وقف داني فاغر الفم أمام الثلاجة المفتوحة، جثا على ركبتيه رافعاً يديه، في خشوعٍ، وكأنّه في صلاةٍ أمام وفرة الأطعمة. نهض وكدّس بين ذراعيه شوكولا نوتيلا وكبداً بالدسم وسجقاً وجبناً وأرغفة خبزٍ صغيرة وكلّ أصناف الأطعمة. وضع كنزه على طاولة المطبخ الكبيرة وجلس على كرسيّ مرتفع وشرع بالتهام الطعام.

جلس أنطوان قبالته على مقعدٍ بلا مسند وسأله:

- هل الأشباح تأكل؟

تفوّه داني بكلمة غير مفهومة إذ كان فمه مليئاً برغيفٍ صغيرٍ محشيٍّ بكبد وشوكولا. ثم قال:

- فضلاً عن ذلك، الجيّد في الأمر أننا لا نسمن. يمكننا أن نتناول الهمبرغر طيلة النهار ونشرب من الكوكا قدر ما نشاء، لا يزيد وزننا كيلوغراماً واحداً. من الرائع أن يكون المرء شبحاً، إنّها الحياة الجميلة، يا رجل. هلا ناولتني قارورة الكوكا؟

- اسمع، يا داني، تبدو جذّاباً جداً، تغنّي أغاني جميلة، ولكن لدي عملٌ غداً، وبالتالي، ألا يمكنك أن تذهب وتحلّ ضيفاً على شخصٍ آخر؟

قال داني بعد أن أفرغ نصف قارورة الكوكا، وتجشّأ بفظاظة:

- لا أستطيع. لديّ مهمّة، ولذلك أنا هنا.

- أوه، ومهمّتك هي إفراغ ثلاجتي؟

- كلا، ولكن هذا يجعل مهمّتي أكثر جاذبية.

- ألا يمكنك التوقّف عن تناول الطعام وشرح موقفك دون بعثرة الفتات في كلّ مكان؟ أنا مَنْ سأنظّف البيت.

- حسناً، يا طوني. لقد عُينتُ لأكون ملاكك الحارس.

- لتحذّرني من مخاطر الكولسترول؟ مَنْ عيّنك؟

- لم أعد أدري، لقد أتخِمت. على أيّ حال، أنا هنا لأخلّصك من كلّ هذه المهزلة.

قام داني بحركة واسعة شملت المبنى. تجشّأ ونبش بين جبل الأطعمة. بدا واضحاً أنّ شبح داني بريان أقلّ أناقةً مما هو في الواقع.

قال أنطوان ساخراً:

- هذا أمرٌ غيب، إذاً؟

أكّد داني وهو ينقضّ على علبة رقائق بطاطا:

- حسناً، يا طوني، ماذا عن حياتك؟ هل أنت سعيد؟

- لا أقول أنني سعيد، ولكنني أيضاً لستُ تعساً.

- لا سعيد ولا تعِس؟ ليس هناك ما هو أسوأ. حياتك مهزلة.

- شكراً، هذا أمرٌ حسّاس جداً. لتكون ملاكاً حارساً، ألا تتبع نوعاً من التدريب النفسي؟

- كلا، أتعلّم هذا الأمر بالممارسة. أنت أوّل شخصٌ أتكفّل به، أنت تجربتي الأولى.

- هذا خارق، فعلاً هذا خارق.

شرع أنطوان في لملمة فتات الطعام والأغلفة. كنس داني الطاولة بيديه، رفع الورق وقطع الكاتو وشرائح السلمون وأخيراً وجد الغرض من بحثه: طبعة الجيب من كتاب **رسائل** فلوبير. نفض عنه الغبار ومسح الشحوم التي غطّت غلافه، تصفّحه وفتحه على صفحةٍ طواها.

- ها هو. هل لديك مايكرفون يا طوني؟

غمغم أنطوان وقد أعياه التعب:

- في الصالون يا داني. تحت المسجّلة.

بعد أن شفط عبوة صغيرة من الكافيار بشفّاطة رُسِم عليها رأس ميكي، ذهب داني إلى الصالون. حلّ المايكرفون وجهّزه وأوصله بالمسجّلة. دوّى ضجيجٌ حاد.

- هل يمكنك أن تعطيني أفضل ألبوماتي؟

- ليس لدي أفضل ألبوماتك، يا داني. كما ليس لديّ أيّ أسطوانة.

قال داني وهو يُخرِج من جيبه أسطوانة:

- لا بأس، لقد تحسّبت لهذا. قارئتك فيها تقنية الكريوكي، هذا رائع. وضع الأسطوانة في القارئة وضغط على بعض

الأزرار. كان يمسك بكتاب رسائل فلوبير بيده اليسرى. نقر على القارئة وضغط على زرّ «قراءة» وانبعثت أولى نوتات أغنيته الرائجة **أعد لي حظّي** من البافلات، دون كلمات. هزّ رأسه على إيقاع الموسيقى ثمّ بدأ بغناء مقطعٍ من رسالةٍ إلى الآنسة ليروايبه دي شانتوبي، مؤرّخة بتاريخ 18 أيار/ مايو 1857، متابعاً بدقّة لحن أغنيته ومضيفاً إليها هتافات أكثر شخصيةً:

الناس البسطاء، قصار النظر، العقول
المغرورة والمتحمّسة، يريدون في كلّ شيء خلاصةً؛
يبحثون عن هدف الحياة،
أجل، وعن بُعد اللانهاية، إيه!
يمسكون بيدهم، همممم،
بيدهم الصغيرة المسكينة،
حفنة رملٍ،
ويقولون للمحيط:
«سوف أُحصي حبّات رمل شواطئك»، ياه!
ولكن بما أنّ حبّات الرمل تنساب
من بين أصابعهم، أجل، والحساب طويل،
يخبطون الأرض بأرجلهم ويبكون، أجل، يبكون.
هل تعلم ما الذي يجب فعله
على الساحل الرملي؟
يجب أن نجثو أو نتنزّه،
أجل!

تنزّه.

تنزّه، يا طوني! أجل، تنزّه!

همممم، تنزّه!

يا طوني!

غائراً في الأريكة، استسلم أنطوان، رغماً عنه، للتأرجح على الإيقاع الممتع للأغنية. دوّخته كلمات الأغنية. كان يعصر وسادةً بين ذراعيه. في ختام الأغنية، انضمّ إليه داني. أمسك بكتفيه وهزّه بمودّة.

- كفّ عن الجنون، يا طوني. لا بأس بالقليل من الجنون، ولكنّ غوستاف الغليظ محقّ: تنزّه على الأنهار! يجب أن تكفّ عن بلاهاتك، لست فتى ذهبياً، هذا ليس أنت. دعك من كلّ هذا، دعك من هذا الأبله رافي، عد إلى أصدقائك وعش حياتك. نعم، عش حياتك، يا طوني.

غمغم أنطوان مرغماً نفسه على الابتسام:

- كل ما تقوله يشبه كلمات أغنية...

وافقه داني الرأي:

- تشوّه مهني.

بدأ الظلام بالتلاشي، زقزقت عصافيرٌ ونطنطت على أبراج وأعمدة الكهرباء.

نهض داني ونفض بزّته.

- عليّ أن أغادر الآن: يحتاج بائسون آخرون إلى نصائحي.

ولكنني سأستمرّ في السهر عليك طالما لم تتخلّص من المشكلة. سوف تنجو يا طوني. أتعرف ماذا كان نيتشه يقول؟ «الذكاء حصانٌ جامح، يجب أن نجيد ترويضه وإطعامه الشوفان المناسب وتنظيفه وأحياناً استخدام المهماز». إلى اللقاء، يا طوني.

عبر شبح داني بريان الصالون وتوارى في عتمة الممرّ دون أن يسمع أنطوان صوت انفتاح الباب. نام على الأريكة لبضع ساعاتٍ بدت له قروناً.

خلال الأسبوع الذي تلا زيارة الشبح، لم يتحدّث أنطوان مع أحدٍ؛ بدا مشغول البال. تجاهل رافي وزملائه السماسرة وسهراتهم المشتركة في المحلات الراقية. مساء الجمعة، مغادراً العمل، طلب سيارة أجرة ليعود إلى بيته. توقّفت سيارة فان سوداء اللون ملوّنة الزجاج أمامه تماماً وصرّت عجلاتها. التفت السائق نحو أنطوان مشهراً مسدساً. كان يرتدي قناعاً كقناع ألبيرت أينشتاين. انزلق باب سيارة الفان، خرج منها رجلان آخران يرتديان قناع أينشتاين وأمسك كلٌّ منهما بإحدى ذراعيه ودفعاه إلى داخل المركبة. لم يؤتِ أنطوان بحركة: كان منهكاً ومتعباً جداً بحيث لم يحظ بقوة الاعتراض على إرادات معاكسة. كمّمه أشباه أينشتاين وعصّبوا عينيه وقيّدوه. حاول أنطوان أن يتتبّع ذهنياً مسار السيارة ويحدّد اللحظات التي تنعطف فيها المركبة إلى اليسار وإلى اليمين ومواقع الإشارات المرورية، ولكنّه فقد بعد خمس دقائق رأس الخيط. بعد سيرٍ مليءٍ بالمنعطفات توقّفت سيارة

الفان. أخرج أشباه أينشتاين أنطوان من السيارة. كان الهواء العليل للمساء الأيلولي لطيفاً وكأنّه منسوجٌ من الحرير. دخلوا إلى مكانٍ مغلق بدا لأنطوان أنّه مبنى. أمسكه أحدهم من خصره وحمله على كتفه. نُقِل على تلك الوضعية لعدّة طوابق لم يستطع عدّها لأنّه بدأ يدوخ. انفتح بابٌ. أجلسته أذرعٌ على كرسيٍّ. نزع الخاطفون قيوده ورفعوا العصابة عن عينيه وربطوه إلى الكرسي. أبقوا على كمامته. خلال بضع ثوانٍ، اضطربت رؤيته واكتشف أخيلة من حوله، وشاهد نافذة.

وأخيراً أصبحت الصور واضحة واستطاع أن يرى الأشخاص الأربعة الذين يرتدون ثياباً سوداء ويضعون أقنعة أينشتاين. وقفوا قبالته في نصف دائرة، دون أن يتفوّهوا بكلمة. حاول أنطوان أن يتكلّم، ولكنّ الكمامة أعاقته. نظر بانتباه إلى الغرفة بحثاً عن إشارات عن شيءٍ ما قد يفسّر اختطافه. كانت ستائر بيضاء كبيرة قد عُلِّقَت على الجدران وأمام النافذة. وعلُّق مصباحٌ هالوجيني خلف خاطفيه وهو ما جعلهم يبدون أطول وأضخم مما هم عليه في الحقيقة. كانت ظلالهم العملاقة تنتشر في سائر الغرفة وتغطّي أنطوان، المقيّد على كرسيّه. برزت تجاعيد أقنعة أينشتاين البلاستيكية على شكل انعكاسات مخيفة ولمع عُرفها المصنوع من الشعر الأبيض مثل تلالٍ من المشاعل المتخلّصة من ألوانها. سحبوا أنطوان من كرسيّه وأسندوا ظهره إلى الجدار. وضعوا بجانبه جهازاً لتظهير الصور. بدأت أغرب جلسة تعزيم لم يحدث لها مثيل. أخرج أحد أشباه ألبيرت

أينشتاين من كيسٍ بلاستيكي العشرات من رؤوس وقوائم الدجاج. وضعها على شكل حلقة حول الكرسي وعلّق رأس ديكٍ بريشه الجميل حولِ رقبة أنطوان. أمسك شبيهٌ آخر لألبيرت أينشتاين بقارورة مليئة بالدم وسكبها على وجهه. وقف الأشباه الأربعة لألبيرت أينشتاين بهدوء خلف أنطوان؛ انطفأ الضوء؛ وبدأ جهاز التطهير يُطلِق ومضاته.

في الوقت نفسه الذي انبعثت فيه من الجهاز عقول بشرية عظيمة وتُحف فنية واختراعات واكتشافات، قرأ أشباه أينشتاين الأربعة، كتعازيم، نصوصاً تُعتَبَر من قبل الطبّ البديل على أنّها مقاومة للبلادة والخمول. كان كلّ واحدٍ من الرجال الأربعة يمسك في يده نسخةً من **تأمّلات ميتافيزيقية** لديكارت، في مجموعة ذات تغليفٍ أحمر من .P.U.F، وكأنّهم يمسكون كتاب صلوات. قرأوا في جوقة التأمّل الأوّل، بصوتٍ عالٍ وقويّ، في حين تتالت وجوه فنانين وعلماء وإنسانيين وشخصيات مسلسل سمبسونز على الشاشة. واصلوا وهم ينشدون فقرات من **أفكار** باسكال و**تعليقات** عاشقٍ لغراسيان ونبيذ بورغون واللحظات الأكثر غرابةً لـ **ثلاثة رجال في سفينة** لـ جيروم ك. جيروم.

استغرقت جلسة التعزيم أكثر من ساعة بقليل. أخيراً، توقّفت ومضات جهاز التطهير. توقّف الخاطفون عن أناشيدهم العليمة. أناروا المصباح ونزعوا الستائر التي غطّت جدران الغرفة. تعرّف أنطوان على شقّته القديمة في مونتروي. نزع الخاطفون الأقنعة عن وجوههم: بانت الوجوه المتعرّقة لآس وشارلوت وغانجا

ورودولف. بدوا راضين عن العمل الذي أنجزوه، ولكنّهم احتاجوا إلى حركات أنطوان على الكرسي ليحرّروه.

سألهم أنطوان هادئاً قدر ما استطاع، متخلّصاً بفزع من رأس الديك المربوط حول عنقه:

- هل جننتم أم ماذا؟

شرح غانجا:

- أردنا فقط أن نزيل عنك السِّحر يا أنطوان. لقد أصبحت مغفّلاً قذراً جداً.

تابعت شارلوت:

- لديّ عمّة تفهم في سحر فودو(*) قليلاً، وقد شرحت لنا كيف نحرّرك من هذا النوع من السحر الذي وضعت نفسك بنفسك في أسره.

أطنب رودولف:

- لقد أنقذناك بكفاءتها المعهودة. كنتَ قد أصبحت شبحاً. لقد أزلنا عنك شبحيتك. نجحت المهمّة.

أخذ آس أنطوان بين ذراعيه وضمّه بقوّة بجسده الضخم المتوهّج. خاطبه بأبيات ثمانية المقاطع كم كان سعيداً بلقائه. تخلّى أنطوان عن فكرة أن يغضَب: لم تكن لدى أصدقائه سوى نيّة صادقة حياله، ولو عبّروا عن ذلك برعونة جازفت بأن تؤذيه، فقد أرادوا إنقاذه.

(*) عبادة أرواحية لدى زنوج الانتي وهايتي. (المترجم)

روى لهم أنطوان - دون أن يذكر الزيارة الليلية التي قام بها داني بريان لئلا يقلقهم على صحّته العقلية - بأنّه قد توقّف عن تناول أقراصه منذ أسبوع وأعدّ لخروجه بطريقة جميلة: فقد أدخل فيروساً إلى النظام الإلكتروني لشركة رافي والذي، بارتباطه بالشبكة العالمية، لا بدّ أن يتسبّب، عند إعادة فتح الأسواق في بداية الأسبوع، باختلالٍ ماليّ مُفرِح.

في ليلة الخلاص تلك، ناموا جميعاً مفترشين الستائر البيضاء في شقّة أنطوان، كأطفالٍ في كوخٍ مبنيٍّ في شجرة سنديانٍ وسط غابة ساحرة.

مرّت بضعة أيام، أضاع خلالها أنطوان وقته مع أصدقائه، في التسلية وفي الاستمتاع بترابطهم.

ذات صباح، دقّ رجال شرطة بابه واعتقلوهم. كان رافي قد فرّ إلى سويسرا ببعض المدّخرات. وإذ اعتبر القضاء منفاه السويسري عقاباً قاسياً كافياً، لم يطلب تسليمه. سريعاً جداً، سُجِّلَت دعوى قضائية. دفع أنطوان غرامةً بدّدت كلّ ما استطاع كسبه؛ فقد تمّت مصادرة كلّ أمواله ولوحاته وسيارته؛ ولم يُضرّ كشخص حيث أُدين فقط بستّة أشهر من السجن مع وقف التنفيذ. وجد أنطوان ذلك ثمناً مناسباً لقاء نفي رافي وإخفاء بضعة مليارات.

كان صباحاً خريفياً حيث نجح القمر في البقاء حتى الصباح. لم تظهر الشمس في السماء: فقد تراءت برقّة داخل كلّ النفوس الطبيعية والحضرية، ورشَحت من بتلات الأزهار والعمارات القديمة والوجوه المتعَبَة للمارّة.

في المحرقة الخصبة للزمن المنصرم تتوهّج في العيون المصدومة الجنان الحقيقية الوحيدة التي يكون الإحساس أساسها.

صباح الأحد ذاك، استيقظ أنطوان في الساعة الثامنة. وسط الأمواج المختلطة التي تفصل بين النوم واليقظة، بدا له أنّه يسمع أغنية.

تمطّى ونهض. بعد أن وضع ماءً في الغلاية، دخل إلى الحمام واستحمّ. ما أن فاح عطر الشاي، ظلّ للحظة يشاهد السائل الأخضر والمتبخّر أمام نافذته. على غصن شجرة، بدا طائر أبو حنّاء وكأنّه يتربّص بذاكرة أنطوان؛ أشاعت شمس الصيف وميضاً دائماً في الجوّ. دون أن يشرب قطرةً من الشاي، وضع الكوب أمام النافذة وخرج من شقّته. سار حتى حديقة

مونتروي، منسلاً بين السيارات والمارّة. أسرع خطاه، وأربطة حذائه محلولة، وشعره الأشعث لا يزال رطباً. في تلك الساعة، كانت الحديقة شبه خالية: كان كبارٌ في السنّ يتنزّهون، ونساءٌ يروّحن عن أطفالهنّ، وكان رسّامٌ يعتمر قبّعة كبيرة ينصب مرسمه على العشب.

سار أنطوان بخطى مضطربة، كتائهٍ في ذاك المكان المنبسط والهادئ. جلس على مقعدٍ بجانب رجلٍ مسنٍّ مستندٍ إلى عكّازه ذي التُفّيحة الفضّية. كان العجوز يعتمر قبّعة من اللبّاد الرمادي فيه عصبة من الحرير الأسود؛ أدار رأسه بهدوء نحو أنطوان ثمّ استعاد وضعيته الشبيهة بوضعية حارسٍ متعَب.

نظر أنطوان بالاتجاه نفسه، وللحظةٍ، لم ير شيئاً ولكنّه إذ قطّب عينيه ونظر بحدّة، ظهرت امرأة شابّة أمامه تماماً. أمعنت النظر في أنطوان وأحنت رأسها وانحنت لتتفحّصه وكأنّه تمثال، ثمّ مدّت له يدها. بمجاملةٍ لاإرادية، صافحها أنطوان. أراد أن يتكلّم ولكنّ المرأة الشابّة وضعت إصبعاً على شفتيها وأشارت له أن ينهض ويلحق بها. ابتعدا عن المقعد وعن الرجل العجوز.

قالت الفتاة وهي تنظر إلى أنطوان ومن ثم إلى حولها:

- أبحث عن أصدقاء.

- ماذا يشبهون؟

- ربّما يشبهونك. بما أنّك بدوت شخصاً مثيراً للاهتمام جالساً على هذا المقعد، قلتُ لنفسي لا بدّ أنّك أحد أصدقائي. تبدو ذو نوعية جيّدة. ذو نوعية رائعة.

- ذو نوعية رائعة. . . وكأنّكِ تتحدّثين عن الجانبون.

- كلا، ليس الجانبون، أنا لا آكل اللحم.

- وتأكلين أصدقاءكِ؟

- لم يعد لديّ أصدقاء، يجب أن تسايرني قليلاً. هنا، بما أنني أقول أشياء غريبة، يفترض بك أن تسألني لماذا؟

- نسي وكيلي أن يرسل إليّ تتمّة نص الحوار المسرحي خاصّتي. إذاً. . . لماذا؟

سألت وهي تمثّل دور المندهشة بطريقة مقنعة جداً:

- لماذا ماذا؟

- لماذا لم يعد لديكِ أصدقاء؟

- لقد تعفّنوا. لم ألاحظ أنّ لهم تاريخ انتهاء صلاحية. يجب الانتباه إلى هذا الأمر. بدأت تظهر على أصدقائي آثار العَفَن، بُقَعٌ خضراء مقزّزة. بدأت فعلاً رائحة نتنة تفوح مما يقولونه. . .

- قد يكون هذا خطيراً.

- نعم، قد يصيبوني بداء السّلمونيات.

- هل رميتِهم في حاوية القمامة؟

- كلا، لا حاجة إلى ذلك، لقد رموا نفسهم بأنفسهم في حياتهم الواهية.

- أنتِ قاسية.

- عذراً؛ هذا ليس نصّك: كان عليك أن تقول: «أنتِ خارقة».

- ثمّة تعديلات اللحظة الأخيرة على السيناريو.

- أنا دائماً آخر مَنْ يعلَم!

توقّفت الفتاة فجأةً وضربت بيدها على جبينها. وقفت أمام أنطوان، في حالة مزرية، جاحظة العينين.

- لقد نسينا مشهد التعارف! لقد نسينا مشهد التعارف! علينا أن نمثّل كلّ شيء من البداية. تعال، سنعود إلى المقعد.

أجاب أنطوان وهو يوقفها:

- تعرفين، يمكننا تمثيل ملحق. ولهذا وجِدَ المونتاج.

- أنت محقّ. لنمشِ للحظات دون أن نتفوّه بكلمة ثمّ لنتعارف.

ابدأ.

سارا في الممرّات الضيّقة للحديقة، على المروج، يشاهدان الأشجار والعصافير. كان الطقس لطيفاً، وللهواء لونٌ واضحٌ يكاد يكون متلألئاً. لم يكن قط شهر أيلول/ سبتمبر بهذا الجوّ اللطيف؛ فقد تجاهل بسذاجة الخريف المقترِب، وظلّ فخوراً، منتصباً، يحرق آخر قوى الصيف وكأنها لامتناهية.

قالت الفتاة بعفوية:

- أوه، اسمي كليمانس.

ردّ أنطوان بنبرةٍ فكِهة:

- تشرّفنا. اسمي أنطوان.

قالت وهي تصافحه:

- أنا سعيدة بمعرفتك.

ثمّ بعد برهةٍ من الصمت، أردفت:

- الآن، يا أنطوان، فلنستأنف من اللحظة التي كنتَ تقول بأنني خارقة.

- قلتُ أنّكِ قاسية.

- أنت ظالم. ألا تُبدي رأيك في أحدٍ؟

- أحاول، ولكن هذا صعبٌ.

- أعتقد بأننا نستطيع أن نفهم ونحكم على الناس. نحكم فقط لندافع عن أنفسنا، إذ مَنْ يحاول أن يفهمنا؟ مَنْ يفهم الذين يحاولون أن يفهموا؟

- كان لانسونير يقول أنّ المدانين هم وحدهم مؤهّلون لأن يحكموا.

قالت كليمانس، فاردةً ذراعيها:

- لا بأس إذاً، نحن المدانون. لطالما كنتُ مدانة، منذ صغري، كان يُحكَم عليّ بقراراتٍ صامتة. جميلٌ ما أقوله، أليس كذلك؟

- مثلاً؟

- على سبيل المثال: كلّ شيء. المجتمع بأجمعه أدانني. العمل، الدراسة، الموسيقى الحديثة، المال، السياسة، الرياضة، التلفزيون، عارضات الأزياء، الصحف، السيارات. هذا مثالٌ جيّد، السيارات. لا أستطيع ركوب الدراجة والسير

أينما شئت والاستمتاع بالمدينة: السيارات تدين حريّتي. وتسبّب العفونة، إنّها خطيرة...

- أوافقكِ الرأي. السيارات مصيبة.

اشتريا غزل بنات. انتزعا منه نفثات وردية والتهماها بسرعةٍ وهما يتلمّظان أصابعهما وشفاههما.

قالت كليمانس:

- ثمّة أمرٌ آخر. برأيي، إنّ الانقسام الكبير للعالم، بمعزل عن مسألة الطبقاتِ الاجتماعية، الانقسام الكبير للعالم هو بين الذين يذهبون إلى الحفلات الراقصة والذين لا يذهبون إليها. ويستمر انقسام الإنسانية هذا، الذي يبدأ من المدرسة، العمر كلّه بصيغ أخرى.

- لم أُدعَ إلى حفلات راقصة.

- ولا أنا. كانوا يخافون لأنني كنتُ أقول ما أفكّر به وكنتُ أُسيئ الظنّ كثيراً بزملائي. كنتُ أكره الجميع تقريباً. كان ذلك رائعاً. ولكن الآن، لأنّهم اكتشفوا كم نحن خارقين، يريدون أن يدعوننا إلى الحفلاتِ الراقصة للبالغين، ويتصرّفون وكأنّ شيئاً لم يحدث، وكأنّ كلّ شيءٍ قد نُسي. ولكن هيهات، لن نذهب.

- أو فقط لتوزيع البسكويت وقوارير الأورانجينا.

قالت كليمانس وهي تقلّد ضربة البيسبول:

- وضرب كلّ أولئك الناس بمضارب البيسبول على جماجمهم.

- وسوف نجهز عليهم بعصي الغولف، فهذا أكثر أناقةً.

- بأناقة، بلطف!

غادرا الحديقة وهما يتناقشان. سارا جنباً إلى جنب، تَنَطْنَطَت كليمانس وقطفت زهوراً وطيّرت العصافير بالتصفيق. كانت تقريباً بعمر أنطوان؛ للحظاتٍ تكون في غاية الجدّية ثمّ في لحظةٍ تغدو مرحة وخفيفة، لا تكفّ شخصيتها عن التأرجح. صرخت بهيئة بريئة فاردةً ذراعيها:

- لماذا لا يحقّ لنا أن ننتقد ونعتبر الناس مغفّلين ومعتوهين، بذريعة أننا سنبدو غائظين وغيورين؟ يتصرّف الجميع على أنّنا متساوون، على أننا جميعاً أثرياء، مثقّفون، أقوياء، بيضٌ، صفرٌ، وسيمون، ذكورٌ، سعداء، بصحّة جيّدة، لدينا سيّارة ضخمة...

ولكن هذا ليس صحيحاً. وبالتالي، لديّ الحقّ في أن أحتجّ وأكون على مزاجٍ سيئ، وألا أبتسم بسذاجة طيلة الوقت، وأدلي برأيي حينما أرى أموراً غير طبيعية ومجحفة، وحتى شتم بعض الناس. هذا حقي في الاعتراض.

- أوافقك الرأي، ولكن... هذا متعِب. ربّما علينا أن نفعل شيئاً أفضل من هذا، أليس كذلك؟

قبِلَت كليمانس:

- أنت محقّ. من الغباء أن نهدِر طاقتنا في أمورٍ لا تستحقّ عناء ذلك. من الأفضل أن نوفّر قوانا للتسلية.

- وللتنزّه على ضفاف النهر.

- والتنزّه على ضفاف النهر... هذه جملة من أغنية، أليس كذلك؟

دندنت كليمانس بلحنٍ غامض. سارا على الرصيف بين حشد العمال والعاطلين عن العمل والطلاب والمسنّين والأطفال. لم تكن المتاجر والمخابز والمصارف تفرَغ من تلك الكريات المبرقشة من البشر الجارية في جهاز دوران دمّ المدينة. مرّت سيارة من أمامهما وهي تزمّر. توقّفت بعد عشرة أمتار على إشارة مرورية حمراء. أمسكت كليمانس بذراعي أنطوان وطلبت منه:

- أغمض عينيك، لديّ مفاجأة لك.

أغمض أنطوان عينيه. لامست ريحٌ خفيفة وساخنة شعر الشابين. سحبت كليمانس أنطوان من ذراعه؛ قادته إلى وسط الشارع. على بُعد مائة متر، كانت سيارة سوداء اللون مقبلة.

- حسناً، يمكنك أن تفتح عينيك.

قال أنطوان بهدوء:

- كليمانس، هناك سيارة مقبلة.

- لقد وعدتني بأن تثق بي.

- كلا، ليس تماماً، لم أقل هذا أبداً.

- آه، لقد نسيت أن أطلب منك ذلك. ثق بي، اتّفقنا؟

- كليمانس، السيارة...

- أَقْسِم اليمين بأنّك تثق بي وكفّ عن التأوّه مثل قُبّرة سمينة. يجب ألاّ تتحرّك، هذا أمرٌ هامٌّ جداً. أَقْسِمْ.

- اتّفقنا، أُقْسِم على ذلك. لن أتحرّك، لن... أتحرّك...

أصبحت السيارة على مقربة ثلاثين متراً، مطلقة العنان لزمّورها ليغادر الشابّان الطريق.

ظلّ أنطوان وكليمانس ساكنين بلا حراك، وكان مارّة ينظرون إليهما. في اللحظة قبل الأخيرة، سحبت كليمانس أنطوان من ذراعه وسقطا معاً على الرصيف. مرّت السيارة السوداء مزمجرةً ومكشّرة عن أنيابها.

قالت كليمانس:

- لقد أنقذت حياتك. أنا بطلتك! (نهضت وساعدت أنطوان على الوقوف.) هذا يعني أنّ حياتنا مرتبطة ببعضها. من الآن فصاعداً، نحن مسؤولان عن بعضنا. مثل الصينيين.

- أعتقد أنني عانيت ما يكفي من الانفعالات اليوم.

- أتعاني الكثير من الانفعالات؟

- نعم، هو كذلك، وإلاّ لأُصِبتُ بجرعة مميتة. لا تقولي لي بأنّ الجرعات المميتة من الانفعالات رائعة، لستُ معتاداً عليها.

توّاقَيْن إلى حياتهما المغامرة، قرّر كليمانس وأنطوان الذهاب لتناول الغداء في غودموندسيوتير مع آس ورودولف وغانجا وشارلوت وصاحبتها. ولكن لأنّ الوقت كان لا يزال

باكراً، قرّرا أن يلعبا لعبة الأشباح. شرحت كليمانس لأنطوان قواعد هذه اللعبة: كان عليهما أن يقودا بعضهما كشبحين، وينظرا إلى الناس على أرصفة المقاهي بدقّة وأن يجولا في الشوارع والمتاجر الصاخبة ويهلّلا ويتسكعا مستغلين لامرئيتهما، ويقودا بعضهما وكأنّهما قد تواريا عن أنظار العالم. ملوّحَين بقيودهما ورافعَين ذراعيهما بطريقةٍ مخيفة، طاف أنطوان وكليمانس وسط المدينة.

مارتن باج

كيف أصبحتُ غبيّاً

ماذا يفعل المرء حينما يكون ذكياً جداً ويتمنّى أن يصبح غبيّاً؟ هذا هو السؤال الذي تطرحه هذه الرواية الساخرة التي تروي سيرة أنطوان، الشاب المثقف والحائز على الشهادات ولكنّه التعيس في حياته.

يعتقد أنطوان أنّ ذكاءه وصفاء ذهنه هما بالضبط ما يُنغِّص حياته. بعد عدّة محاولات عبثية لكي يصبح مدمناً على الكحول وينتحر، يقرّر أن يصبح غبيّاً ليعيش أخيراً حياةً أكثر سعادةً، فينضم بطريقته إلى جو الغباء العام وينغمس في حماقة الحياة المعاصرة والمجتمع الاستهلاكي، متكيّفاً مع وضعه كشخصٍ «طبيعي» يشتري ويُنفق ويستهلك ويفكّر كالجميع...

رواية مضحكة وذكية على نحوٍ لافت.

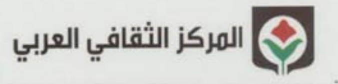
❖ ❖ ❖

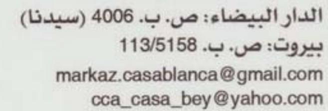
«هذه السخرية الجميلة من المجتمع المعاصر هي الوجه الآخر لنمط باولو كويلو».

(لو نوفيل أوبسيرفاتور)

«هذه الرواية التي لا تُقاوَم بسخرياتها وحقائقها الجازمة تُسحِرُ أيضاً - وخاصة - بكتابتها المنعشة والروحية. إنّ حدّة الذكاء في السرد هي سعادة حقيقية...».

(تيليراما)




الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

